المحصول في شرح ثلاثة الأصول

آخر نسخة ١٤٤٦هـ

عبدالله محمد الجهني

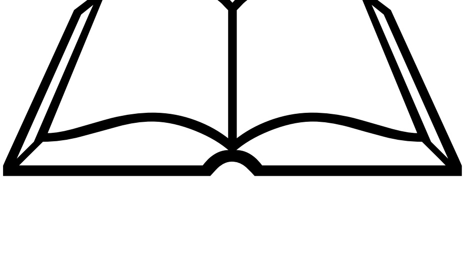

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يليق بجلاله ، وعظمته .

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلِّ اللهم عليه ، وعلى آله ، وصحبه أجمعين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين . . . أما بعد :

فهذا شرح مختصر موجز على الرسالة المفيدة للإمام : محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - المسماة [ثلاثة الأصول] حرصت فيه على إيصال مقصود الشيخ ، وإيضاح بعض عباراته ، وقد جانبت فيه الإسهاب و التطويل إلا عند الحاجة ، وذلك أن هذه الرسالة تفهم من قراءتها لسهولة ألفاظها , ووضوح معناها .

وقد وسمت هذا الشرح بـ **[المحصول في شرح ثلاثة الأصول]** .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع به ، وأن يجزي الشيخ عن المسلمين خير الجزاء .

وصلِّ اللهم على نبينا محمد ، وعلى آله ، وصحبه أجمعين .

نبذة موجزة عن الرسالة :

تسمى هذه الرسالة بـ(**الأصول الثلاثة**) وتسمى بـ(**ثلاثة الأصول**) وهو المشهور[١].

وموضوعها الأساس يدور حول الأمور التي يُسأل عنها الإنسان في قبره (**من ربك , ما دينك , من نبيك**) .

وتتميز هذه الرسالة بعدة أمور :

١. سهولة الأسلوب ، ووضوح العبارة ، فهي واضحة المعنى , لا تحتاج إلى كثير شرح , ولذا كانت تُقرأ في المساجد على عوام الناس , فيفهمون محتواها بدون شرح[٢] .

٢. حسن التصنيف ، واستعمال الطرق المقربة للفهم ، ومن ذلك :

أ. الإجمال ثم التفصيل : فهو يجمل أولاً بعض المسائل ثم يفصلها .

كما في قوله (فإذا قيل لك : ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها ؟ فقل : معرفة العبد ربه , ودينه , ونبيه ﷺ) ثم تكلم عن هذه الأصول بالتفصيل .

وقوله في معرفة الدين (وهو ثلاث مراتب : الإسلام , والإيمان , والإحسان) ثم بدأ يفصل في كل مرتبة , ويذكر أركانها .

ب. إيصال المعلومة بطريقة السؤال والجواب ، وهذا من الأساليب النافعة جداً في ضبط المعلومة ، وهو أسلوب نبوي كما في كثير من الأحاديث , ومنها قوله ﷺ (أخبروني بشجرة تشبه , أو كالرجل المسلم لا يتحات ورقها ...) متفق عليه , وقوله ﷺ (هل تدرون ماذا قال ربكم ...) متفق عليه , وقوله ﷺ (أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش ، فتخر ساجدة ، فلا تزال كذلك حتى يقال لها : ارتفعي ، ارجعي من حيث جئت ، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ...) رواه مسلم

ج. الترتيب ، والتدرج مع القارئ ، ومن ذلك : كلامه في الأصل الأول في معرفة الرب , حيث بدأ بتقرير أنه الرب , ثم ذكر الأدلة العقلية على ذلك , ثم الإلزام بأنه المستحق للعبادة وحده , ثم بيان أنواع العبادات التي يجب أن تصرف له وحده .

٣. الإكثار من الأدلة ، فلا يكاد يذكر مسألة إلا ويدلل عليها .

وهذه الميزة عامة في مؤلفات الشيخ , وهذا هو الذي جعل البركة والقوة في هذه الدعوة المباركة , فالخير , والبركة , والعلم , والصلاح كله في كتاب الله تعالى , وفي سنة رسول الله ﷺ .

---

(١) وبعضهم يجعلهما رسالتين , ولا يظهر ذلك , لأن الشيخ من عادته التركيز على المضمون , وتكراره بألفاظ متقاربة , وهذا معروف لمن يطالع مصنفات الشيخ رحمه الله , وقد جاءت هذه الرسالة في كلام الشيخ بأكثر من لفظ , كذلك رسالة القواعد الأربع جاءت بأكثر من لفظ , وكذا غيرها من الرسائل , والله أعلم .

(٢) يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : ومن الحكمة في تعليم العوام وإرشادهم أن يُعلَّموا ما يحتاجونه بألفاظ وعبارات مناسبة لأذهانهم , قريبة من أفهامهم , فهذا فيه نفع كبير .

محتويات الرسالة :

يمكن أن نجعل هذه الرسالة المفيدة ثلاثة أقسام :

القسم الأول : وهو عبارة عن ثلاث رسائل متفرقة .

القسم الثاني : الكلام عن الأصول الثلاثة (من ربك , ما دينك , من نبيك) .

القسم الثالث : مسائل متفرقة , مثل إثبات البعث , والحساب , وكفر من كذب بالبعث , وبيان أن جميع الرسل جاءوا بالدعوة إلى التوحيد والكفر بالطاغوت , وذكَر رؤوس الطواغيت .

مسألة : ذكر غير واحد من أهل العلم أن الرسائل الثلاث الموجودة في مقدمة هذه الرسالة هي عبارة عن رسائل مستقلة للمصنف , وأن بعض طلاب الشيخ ألحقها في مقدمة الرسالة .

قال الشيخ عبد المحسن القاسم حفظه الله عند شرحه لقول الشيخ (فإذا قيل لك : ما الأصول الثلاثة ...) : هذه بداية رسالة ثلاثة الأصول , وما سبقها هي رسائل متفرقة للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله , وضعها بعض تلامذته قبل ثلاثة الأصول كالتقدمة لها , كما حدثني بذلك الوالد , والشيخ صالح بن غصون رحمهما الله أ.هـ

وهذا هو الأقرب والله أعلم , فقد تكلم الشيخ في مصنفاته عن هذه الأصول الثلاثة منفردة يبدأ بها , كما في قوله في إحدى رسائله (بسم الله الرحمن الرحيم : الواجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلم ثلاثة أصول وهي : معرفة ربه , ودينه , ونبيه . الأصل الأول ......) وفي رسالة أخرى قال (بسم الله الرحمن الرحيم : إذا قيل لك : من ربك ...) ويُنظر أيضاً كتاب (الدرر السنية) ج١ص١٣٨ وما بعدها , وص١٤٧ وما بعدها , وص١٥١ وما بعدها .

وكذلك جاءت الرسائل الثلاثة – التي في المقدمة – مفردة , كل مسألة على حِدة , وبعضها جاء بعدة ألفاظ .

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل :

الأولى : العلم ، وهو معرفة الله ، ومعرفة نبيه ، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة .

الثانية : العمل به .

الثالثة : الدعوة إليه .

الرابعة : الصبر على الأذى فيه .

والدليل قوله تعالى : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

قال الشافعي رحمه الله تعالى : لو ما أنزل الله حجةً على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم .

وقال البخاري رحمه الله : بابٌ : العلم قبل القول والعمل .

والدليل قوله تعالى ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ فبدأ بالعلم قبل القول والعمل .

هذه هي الرسالة الأولى .

وخلاصتها : وجوب تعلم الأربع مسائل المذكورة ، وذكر الدليل على ذلك .

قوله [بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ] .

درج المصنفون من أهل العلم على البدء بالبسملة في مصنفاتهم , وذلك لعدة أمور :

١. **اقتداءً بكتاب الله عز وجل** , حيث أُفتتح بالبسملة .

٢. **تأسياً بسنة المرسلين** , فقد كان ﷺ يبدأ رسائله بالبسملة ,كما في حديث هرقل في الصحيحين , حيث بدأ كتابه إليه بقوله : **بسم الله الرحمن الرحيم** ، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد...

وكما في قصة صلح الحديبية , حيث قال ﷺ لعلي رضي الله عنه : اكتب الشرط بيننا : **بسم الله الرحمن الرحيم** ، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله . فقال له المشركون : لو نعلم أنك رسول الله تابعناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله ....متفق عليه , وهذا لفظ مسلم .

وقال تعالى عن رسالة سليمان إلى بلقيس ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ألا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين ﴾ .

٣. **فعل الصحابة رضوان الله عليهم** ، ومن ذلك ما جاء في صحيح البخاري .... عن ثمامة بن عبدالله بن أنيس أن أنساً حدثه أن أبا بكر كتب له هذا الكتاب لما وجهه إلى البحرين : **بسم الله الرحمن الرحيم** : هذه فريضة الصدقة التي فرض رسول الله ﷺ على المسلمين .... ثم ذكر مقدار الصدقة .

٤. طريقة العلماء في مؤلفاتهم : قال ابن حجر في فتح الباري : وقد استقر عمل الأئمة المصنفين على افتتاح كتب العلم بالبسملة , وكذا معظم كتب الرسائل أ.هـ

وقد يُستأنس بحديث (كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر) حسنه ابن الصلاح , والنووي , وقال الشيخ ابن باز : والأقرب أنه من باب الحسن لغيره , وقال عنه الشيخ الألباني : ضعيف جداً [١].

(١) وكذلك حديث (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع) وفي رواية (بحمد الله) وفي رواية (بالحمد) وفي رواية (فهو أجذم) ضعفها الألباني . وانظر إرواء الغليل ج١ ص٢٩ .

قوله [اعلم] .

هذه الكلمة يؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة التي ينبغي للسامع والقارئ أن يصغي إلى ما يُلقى إليه بعدها .

قال الشيخ حافظ حكمي في معارج القبول : (اعلم) كلمة يؤتى بها للاهتمام وللحث على تدبر ما بعدها أ.هـ

وما قرره المصنف هنا من أصول الدين حقيق بأن يهتم به غاية الاهتمام . قاله ابن قاسم في حاشيته .

قوله [رحمك الله] .

هذه جملة خبرية المقصود منها الدعاء للقارئ والسامع بأن يرحمه الله في الدنيا والآخرة .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : كثيراً ما يجمع المصنف رحمه الله بين الدعاء للطالب مع ما قرره ووضحه , وهذا من حسن مسلكه , ومحبته , ورحمته بالمسلمين أ.هـ

وهذا أسلوب دعوي جيد , وهو يشمل جانبين :

١. **جانب اللفظ** : فلابد للداعي أن يتخير الألفاظ المناسبة التي تشرح صدر المدعو للدعوة , كما قال ﷺ لمعاذ : يا معاذ : والله إني لأحبك , والله إني لأحبك , أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول : اللهم أعني على ذكرك , وشكرك , وحسن عبادتك . رواه أحمد , وأبو داود , والنسائي , وصححه الألباني .

وقال ﷺ لعبدالله بن عمر : نِعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل . فكان عبدالله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً . متفق عليه , ودلائل ذلك من السنة كثير .

٢. **جانب القصد** : فلابد للداعي حتى يكون ناجحاً أن يكون همه إنقاذ الناس من النار ، وأن يكون حريصاً على إرادة الخير لهم.

جاء في حديث أنس رضي الله عنه ، قال : كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض ، فأتاه النبي ﷺ يعوده ، فقعد عند رأسه ، فقال له : أسلم . فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له : أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول : الحمد لله الذي أنقذه من النار . رواه البخاري

والسؤال المهم هنا : ماذا يستفيد النبي ﷺ من هذا الغلام الذي هو على سرير الموت ؟

هل هو لتكثير سواد المسلمين , أو الاستفادة منه في الجهاد , أو الدعوة , أو التعليم , أو غير ذلك .

والجواب (الحمد لله الذي أنقذه من النار) هذه هي غاية الداعي الأساس .

قوله [أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل] .

دليل هذا الوجوب ما ذكره من سورة العصر ، حيث تبين أن جميع الناس في خسارة إلا من حقق الأمور الأربعة المذكورة في السورة .

قوله [الأولى : العلم ، وهو معرفة الله ، ومعرفة نبيه ، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة](١) .

ذكر المصنف هنا أن العلم واجب ، ويقصد به العلم الشرعي ، ولا شك أن ما ذكره هنا بقوله (وهو معرفة الله ، ومعرفة رسوله ، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة) يدخل في العلم الواجب العيني ، بل هو من أوجب الواجبات .

وأما على وجه العموم فإن العلم الشرعي منه ما هو واجب يأثم الإنسان بجهله ، ومنه ما هو مستحب وفرض كفاية يحسن تعلمه ولا يأثم بتركه إذا علمه من تحصل الكفاية به .

وضابط العلم الواجب : كل ما لا يتم الواجب إلا به(٢) .

قال الإمام أحمد : يجب عليه أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه ولا يفرط في ذلك , قلت : فكل العلم يقوم به دينه , قال : الفرض الذي يجب عليه في نفسه لا بد له من طلبه, قلت : مثل أي شيء؟ قال : الذي لا يسعه جهله صلاته وصيامه ونحو ذلك.

وهذا يختلف باختلاف الأشخاص ، فقد يكون واجباً على شخص دون آخر ، فالفقير مثلاً لا يجب عليه تعلم أحكام الزكاة ، ولا الحج ، ولا كثير من مسائل البيوع ، ولكن يستحب له ذلك .

ولا شك أن العلم الشرعي من أهم ما ينبغي العناية به , فالأمة تُحفظ وتُعز بقدر عنايتها به .

فبالعلم الشرعي يُعبد الله على بصيرة , وبه يُنفى ما يُنسب إلى الشريعة من بدع وضلالات , وبه تنزل رحمة الله على عباده , وبه يحسن تعامل الناس فيما بينهم .

---

(١) عرف المصنف هنا العلم بالمعرفة , وقد اختلف العلماء : هل العلم يرادف المعرفة أو لا , وهل يصح أن يوصف الله بالمعرفة أو لا .

وقد ذكر ابن القيم في المدارج فروقاً لفظية ومعنوية بين العلم والمعرفة .

وقد اختلفت عبارات العلماء في تعريف العلم . قال ابن حجر في الفتح : وقد أنكر ابن العربي في شرح الترمذي على من تصدى لتعريف العلم , وقال : هو أبين من أن يبين . قلت : وهذه طريقة الغزالي , وشيخه الإمام أن العلم لا يحد لوضوحه , أو لعسره أ.هـ

قلت : تعريف الواضحات من تكلفات أهل الكلام .

(٢) وهناك علوم يحرم تعلمها أو يكره , وقد ذكر ابن تيمية في كتاب الاستقامة أنواع تعلم العلوم ، فقال : من العلم مالا يؤمر به الشخص نوعاً ، أو عيناً ، إما لأنه لا منفعة فيه له ، لأنه يمنعه عما ينفعه ، وقد ينهى عنه إذا كان فيه مضرة له ، وذلك أن من العلم ما لا يحمله عقل الانسان فيضره ، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : حدثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله .

وقال عبد الله بن مسعود : ما من رجل يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم .

ومن الكلام ما يسمى علماً وهو جهل ، مثل كثير من علوم الفلاسفة ، وأهل الكلام ، والأحاديث الموضوعة ، والتقليد الفاسد ، وأحكام النجوم ، ولهذا روي أن من العلم جهلاً ، ومن القول عياً ، ومن البيان سحراً .

ومن العلم ما يضر بعض النفوس لاستعانتها به على أغراضها الفاسدة ، فيكون بمنزلة السلاح للمحارب ، والمال للفاجر .

ومنه ما لا منفعة فيه لعموم الخلق ، مثل معرفة دقائق الفلك ، وثوابته ، وتوابعه ، وحركة كل كوكب ، فإنه بمنزلة حركات التغير عندنا .

ومنه ما يصد عما يحتاج إليه ، فإن الإنسان محتاج إلى بعض العلوم ، وإلى أعمال واجبة ، فإذا اشتغل بما لا يحتاج إليه عما يحتاج اليه كان مذموماً .

فبمثل هذه الوجوه يذم العلم بكونه ليس علماً في الحقيقة ، وإن سماه أصحابه وغيرهم علماً ، وهذا كثير جداً .

أو يكون الإنسان يعجز عن حمله ، أو يدعوه ويعينه على ما يضره ، أو يمنعه عما ينفعه .

وقد يكون في حق الإنسان لا محموداً ولا مذموماً ، هذا كله في جنس العلم .

والعلم الشرعي أفضل العلوم وأزكاها وأعلاها , وكل علم مُدح في الكتاب والسنة، وأثني على أهله فالمراد به العلم الشرعي.

قال الشاطبي في الاعتصام : واتفق أهل الشرائع على أن علوم الشريعة أفضل العلوم وأعظمها أجراً عند الله يوم القيامة .

والعلم النافع هو ما عرَّف العبد بربه ودله عليه وأوصله إليه .

وقد استعاذ النبي ﷺ من علم لا ينفع . رواه مسلم

قال المصنف في بعض رسائله : اعلم رحمك الله أن طلب العلم فريضة , وأنه شفاء للقلوب المريضة , وأن أهم ما على العبد معرفة دينه , الذي معرفته والعمل به سبب لدخول الجنة , والجهل به وإضاعته سبب لدخول النار , أعاذنا الله منها أ.هـ

والعلم الشرعي من أعظم العبادات , وأجل القربات , قال الزهري : ما عُبد الله بشيء أفضل من العلم .

وقد قال ﷺ : من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين . متفق عليه

والعلم كالهداية توفيق من الله عز وجل لمن شاء من عباده .

قال ابن القيم : والعلم يدخل قلب كل موفق من غير بواب ولا استئذان

ويرده المحروم من خذلانه لا تشقنا اللهم بالخذلان

والعلم أنفس ما اشتغل به العبد , قيل لسفيان الثوري : إلى متى تطلب الحديث ؟ قال : وأي خير أنا فيه خير من الحديث فأصير إليه .

قال الرحبي في منظومته الرحبية : علماً بأن العلم خير ما سُعي فيه وأولى ما له العبد دُعي

وينبغي أخذ العلم ديانة , وقربة , فالعلم لا يؤخذ ثقافة , أو هواية , أو للتكثر به , والتزين به في المجالس , فعن سفيان الثوري قال : زينوا العلم بأنفسكم , ولا تزينوا بالعلم .

وعن حبيب بن عبيد قال : تعلموا العلم , واعقلوه , وانتفعوا به , ولا تعلموا لتتجملوا به , فإنه يوشك إن طال بكم العمر أن يُتجمل بالعلم كما يتجمل الرجل ببزته .

وبتحصيل العلم يسلم الإنسان من الفتن , خاصة عند شدة التباسها , فصاحب العلم صاحب بصيرة وهدى , لا تختلط عليه الأمور , ولا يقع في موج الفتن التي تتقاذف بالناس يمنة ويسرة .

يقول ابن القيم : الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ما أزالت يقينه ، ولا قدحت فيه شكاً , لأنه قد رسخ في العلم , فلا تستفزه الشبهات ، بل إذا وردت عليه ردها حرسُ العلم وجيشه مغلولة مغلوبة أ.هـ

وما أجمل ما قال ابن القيم رحمه الله : فما خراب العالم إلا بالجهل , ولا عمارته إلا بالعلم , وإذا ظهر العلم في بلد أو محلة قل الشر في أهلها , وإذا خفي العلم هناك ظهر الشر والفساد .

والكلام عن فضل العلم وأهله كلام يطول يُرجع إليه في مظانه , وقد أفرد له العلماء قديماً وحديثاً مصنفات .

فائدة : روي عن النبي ﷺ أنه قال : طلب العلم فريضة على كل مسلم . رواه ابن ماجه , وغيره .
وهذا الحديث له طرق كثيرة كلها لا تخلو من مقال .
قال ابن عبد البر : هذا حديث يُروى عن أنس بن مالك , عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة كلها معلولة لا حجة في شيء منها عند أهل العلم بالحديث من جهة الإسناد .
وقد حسنه بعض أهل العلم بمجموع طرقه , قال الألباني : إن طرقه يقوي بعضها بعضاً , بل أحدها حسن , فالحديث بمجموع ذلك صحيح بلا ريب عندي .
تنبيه : قال السخاوي : قد ألحق بعض المصنفين بآخر هذا الحديث (ومسلمة) وليس لها ذكر في شيء من طرقه , وإن كان معناها صحيحاً .

قوله [الثانية : العمل به] .

العمل هو ثمرة العلم ، فالذي يتعلم ولا يعمل مغبون مفتون .
والعلم النافع هو العلم الذي يثمر العمل والخشية , وإلا كان وبالاً على صاحبه .
قال ابن رجب : وحينئذ يثمر له هذا العلم ثمرته الخاصة به وهي خشية الله , كما قال عز وجل (إِنما يَخشى اللهَ من عباده العلماءُ) قال ابن مسعود وغيره : كفى بخشية الله علماً , وكفى بالاغترار بالله جهلاً . وقال بعض السلف : ليس العلم بكثرة الرواية , ولكن العلم الخشية . وقال بعضهم : من خشي الله فهو عالم , ومن عصاه فهو جاهل . وكلامهم في هذا المعنى كثير جداً أ.هـ
وقال أيضاً : من تفقَّه لغير العملِ يقسُو قلبُه فلا يشتغلُ بالعمل .
وقال ابن القيم : فإن مجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها – يعني النفس – لم ينفعها .
وقال شيخنا ابن عثيمين[١] في شرح كتاب التوحيد : فضرر العلم الذي لا ينفع أشد من ضرر الجهل أ.هـ
ومن أعظم ما يخيف العبد في هذا المقام قول النبي ﷺ : لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن : عمره فيما أفناه ، **وعن علمه فيم فعل** ، وعن ماله من أين اكتسبه , وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه . رواه الترمذي , وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وصححه الألباني .
قال شيخنا : العمل في الحقيقة هو ثمرة العلم , فمن عمل بلا علم , فقد شابه النصارى , ومن علم ولم يعمل فقد شابه اليهود .
وقد كان السلف رحمهم الله يحفظون العلم بالعمل , قال بعض السلف : كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به .
وقد قيل : هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل .
والعمل بالعلم يكسب العبد علوماً أخرى , كما قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ .
قال بعض أهل العلم : من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم , ومن لم يعمل بما علم أوشك الله أن يسلبه ما علم [٢].

---

(١) إذا أطلقتُ لفظ (شيخنا) فالمراد به شيخنا ابن عثيمين رحمه الله تعالى , وجزاه عني وعن المسلمين خير الجزاء , وجعل ما نبثه من علم في ميزان حسناته .
(٢) ويروى مرفوعاً , ولا يصح رفعه .

والعالم العامل تصل موعظته القلوب , وينفع الله بكلامه ولو كان قليلاً بسيطاً , وأما غير العامل فلا تتعدى موعظته الآذان , وإن زخرفه بأجمل البيان .

قال مالك بن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب , كما تزل القطر عن الصفا .

وما أجمل قول الفضيل : لا يزال العالم جاهلاً حتى يعمل بعلمه , فإذا عمل به صار عالماً .

ونقل الخطيب البغدادي في كتابه (اقتضاء العلم العمل) بسنده عن الشعبي قال : إنا لسنا بالفقهاء , ولكنا سمعنا الحديث فرويناه , ولكن الفقهاء من إذا علم عمل .

والعبد لا تكمل لذته بالعلم إلا بالعمل به , قال عون بن عبد الله : إنما يحمل الرجل على ترك العلم قلة الانتفاع بما قد علم .

والعلم المجرد عن العمل يُخذَل صاحبه ولو بعد حين .

والشقي من شقي بالعلم , وكان بعض الشيوخ يوصي من يطلب العلم عنده بقوله : لا يكن العلم شقاء عليكم .

وهي كلمة عظيمة , واسعة المدلول , إذ قد يكون العلم شقاء على صاحبه بالتفلت من الأوامر والنواهي باتباع الحيل , وتتبع الرخص , وقد يكون شقاء على صاحبه بدفعه بين أظهر أهل الدنيا حتى يفتن في دينه , وقد يكون شقاء عليه بالتسلط به , والتباهي , والعجب , وغير ذلك من الآفات , وحينها يكون الجهل في حقه خير من العلم .

وعليه فمن فُتح له باب العلم فليسأل الله دوماً أن يفتح عليه باب العمل , وبذا تكمل سعادته في الدارين .

وإليك بعض النقول النافعة عن السلف في شأن العمل :

- قال سفيان الثوري : ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديث قط إلا عملت به ولو مرة .
- وقال أحمد بن حنبل : ما كتبت حديثاً إلا وقد عملت به .
- وقال إبراهيم الحربي : ينبغي للرجل إذا سمع شيئاً من أدب رسول الله ﷺ أن يتمسك به .
- وقال الإمام مالك : إن حقاً على من طلب العلم أن يكون له وقار , وسكينة , وخشية .
- وقال بعض السلف : من أوتي من العلم ما لا يبكيه يُخاف ألا يكون أوتي علماً ينفعه .
- وقال الذهبي : فإن رأيته مجداً في طلب العلم , لا حظ له في القربات فهذا كسلان مهين , وليس بصادق في حسن نيته .
- ومن روائع كلام الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب : إذا أمر الله العبد بأمر وجب عليه فيه سبع مراتب :

الأولى : العلم به . الثانية : محبته . الثالثة : العزم على الفعل . الرابعة : العمل . الخامسة : كونه يقع على المشروع خالصاً صواباً . السادسة : التحذير من فعل ما يحبطه . السابعة : الثبات عليه .

قوله [الثالثة : الدعوة إليه] .

بعد أن كمل الإنسان نفسه بالعلم والعمل ، ينبغي له أن يسعى في تكميل غيره ، قال ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . متفق عليه

قال محمد بن القاسم : كنا إذا ودعنا مالكاً يقول لنا : اتقوا الله , وانشروا هذا العلم , وعلموه , ولا تكتموه .

وروى الدارمي في سننه عن الزهري قال : كان من مضى من علمائنا يقولون : نشر العلم ثبات الدين والدنيا ، وفي ذهاب العلم ذهاب ذلك كله .

وقال ابن المبارك : من بخل بالعلم ابتلي بثلاث : إما أن يموت فيذهب علمه , أو ينساه , أو يتبع السلطان .

والدعوة إلى الله من أشرف المقامات , وأعلى المراتب , إذ هي مقام الأنبياء والمرسلين .

ومن أعظم ما يدل على شرف الدعوة قول الله عز وجل ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ والمعنى : لا أحد .

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب : فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم .

وقد قرن الله خيرية هذه الأمة بالدعوة إلى الله عز وجل , فقال تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوف وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ .

فبالدعوة إلى الله , والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحفظ الأمة , كما أنها لا تعز إلا بالجهاد في سبيل الله .

وأعلى مراتب الدعوة هي الدعوة إلى توحيد الله تعالى ، كما صدَّر كل نبي دعوته بالدعوة إلى التوحيد .

وقد مكث النبي ﷺ عشر سنوات بمكة يدعو إلى التوحيد , ثم فرضت الصلاة , وباقي الفرائض , فأي دعوة لا تقتفي منهاج النبوة فمآلها البوار والخسران .

ولا بد أن يسبق الدعوة : العلم بما يدعو إليه ، وكيفية الدعوة , وإلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح , قال تعالى عن نبينا محمد ﷺ ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ .

وعلى الداعي إلى الله ملازمة الإخلاص في دعوته , فإن قلوب العباد بيد الله عز وجل , فإن علم الله منه الصدق , بارك في دعوته , وفتح قلوب العباد لقبول ما يدعو إليه .

وينبغي على الداعي إلى الله ألا يكون همه تكثير الناس , بل يكون همه دعوة الناس على النهج القويم , وإن كان المستجيب له قليل , وفي الحديث الصحيح : يأتي النبي ومعه الرجل والرجلان , والنبي وليس معه أحد . متفق عليه

ومن أكبر ما ينبغي عليه : ألا يطلب على دعوته غرضاً من أغراض الدنيا مهما كان , سواء كان ذلك مالاً , أو منصباً , أو شهرة , أو رفعة بين الناس , أو غير ذلك من مطالب الدنيا , فإن التفتت نفسه لشيء من ذلك فقد عرض نفسه للهلكة .

وقد كان أعظم الدعاة من رسل الله يصدرون دعوتهم لأقوامهم بقولهم ﴿ لا أسألكم عليه مالاً ﴾ ﴿ لا أسألكم عليه أجراً ﴾ فهذا أول الرسل نوح عليه السلام يقول لقومه كما في سورة هود ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً ﴾ وهذا خاتم الرسل نبينا ﷺ قال لقومه كما في سورة الشورى ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ وهي سنة جميع الرسل .

ومن البلاء المعاصر أن تكون الدعوة مجالاً للكسب , والله المستعان .

ومن جميل العبارة قول بعضهم يصور الواقع : كانت الدعوة غُرماً , فصارت غُنماً .

تنبيه : لا بد أن نفرق بين مقامين في الدعوة إلى الله , الأول مقام التصدي , والنزول للدعوة , وهذا لا بد له من علم كافٍ , وقدوة صالحة , وشروط أخرى , والثاني الدعوة العرضية , أو نقل العلم , وهو أن يبلغ الإنسان ما سمعه لمن يحب من أهله , وإخوانه , وهذا المقام أخف من المقام الأول , وهو المراد بقوله ﷺ (بلغوا عني ولو آية) رواه البخاري , فلا بد من التفريق بين المقامين , والواقع اليوم خلط بينهما , وكان نتيجة ذلك خلل واضح .

والكلام عن الدعوة , وفضلها , ووسائلها , وشروطها كلام يطول , وله مصنفات خاصة يرجع إليها .

قوله [الرابعة : الصبر على الأذى فيه] .

لقد قضى الله قضاءً كونياً أن من قام بدعوة الناس ونصحهم لا بد أن يلقى من بعضهم , أو من أكثرهم ما يؤذيه , ولذا أمر الله أولياءه بالصبر على ذلك , ووعدهم بالأجر الكبير , قال تعالى ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ .

وحينما أوصى لقمان ابنه بالأمر بالمعروف , والنهي عن المنكر أردف تلك الوصية بالوصية له بالصبر , كما قال تعالى عنه ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ .

ليبين أن كل من قام بالدعوة فلابد أن يحصل له من المخالفة , والأذى ما يلزمه التحلي بالصبر .

ولما بين الله فضل الدعوة بقوله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ قال بعدها ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾ .

وفي حديث عائشة في قصة بعثته ﷺ عندما ذهبت به خديجة إلى ورقة بن نوفل قال له : لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي . متفق عليه

وقد ذكر شيخنا ابن عثيمين فائدة لطيفة جداً عند قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴾ قال : كان من المنتظر أن يقال : فاشكر نعمة ربك عليك ، ولكنه عز وجل قال ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن كل من قام بهذا القرآن فلا بد أن يناله ما يناله مما يحتاج إلى صبر .

وعلى هذا فينبغي لمن تصدى لنصح الناس : الاقتداء بالأنبياء بالتحلي بالصبر , واحتمال أذى الناس , ومقابلة الإساءة بالإحسان , وطلب الأجر من الله في ذلك كله .

قوله [والدليل قوله تعالى : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَن الرَّحِيمِ . ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾] .

هذه السورة دليل على وجوب المسائل الأربع ، ووجه الدلالة أن من لم يحقق هذه المسائل الأربع فهو في خسارة .

قال السعدي في شرح منظومته للقواعد الفقهية : ومن فاته شيء من هذه الخصال كان له من الخسار بحسب ما فاته .

وقال في تفسيره : والخسارة مراتب متعددة متفاوتة أ.هـ

وقد اختلف أهل العلم في المراد بالعصر في هذه السورة على أقوال كثيرة , والأقرب والله أعلم أن المراد به وقت العصر المعروف , والله تعالى أقسم بأجزاء اليوم والليلة , فأقسم بالفجر , والضحى , والعصر , والليل .

وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته , وأما المخلوق فلا يجوز له أن يقسم إلا بالله .

وقوله تعالى ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ دليل العلم ، وهي دلالة باللازم ، لأنه لا يمكن أن يوجد إيمان إلا بعلم , وهذا من فقه الشيخ رحمه الله .

قال السعدي : ولا يكون الإيمان بدون العلم , فهو فرع عنه لا يتم إلا به .

﴿ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ دليل العمل ﴿ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ دليل الدعوة ﴿ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ دليل الصبر .

قال ابن القيم : جهاد النفس أربع مراتب :

١. أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق .

٢. أن يجاهدها على العمل به بعد علمه , فإن مجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها .

٣. أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه .

٤. أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق , ويتحمل ذلك كله لله , فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانين , فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق , ويعمل به , ويعلمه , فمن علم وعمل وعلّم فذلك يُدعى عظيماً في ملكوت السماء . مختصراً بتصرف .

وقال أيضاً في الرسالة التبوكية : فانحصر الكمال الإنساني على هذه المراتب الأربعة :

١. العلم بما جاء به الرسول ﷺ .

٢. العمل به .

٣. بثه في الناس ، ودعوتهم إليه .

٤. صبره وجهاده في أدائه وتنفيذه .

قوله [قال الشافعي رحمه الله : لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم] .

وفي لفظ (لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم) ونُقل هذا القول بألفاظ أخرى لا تخرج عن المعنى .

قال ابن تيمية عن كلام الشافعي : هو كما قال .

ومراد الشافعي رحمه الله أن هذه السورة بينت طريق الفلاح , وطريق الخسران .

وهذا دليل على عظم هذه السورة ، وعلى عظم فقه السلف الصالح , وسعة علمهم .

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان : فأقسم سبحانه وتعالى بالدهر الذى هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة ، على أن كل واحد في خسر ، إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان بالله ، وقوته العملية بالعمل بطاعته , فهذا كماله في نفسه ، ثم كمل غيره بوصيته له بذلك ، وأمره إياه به ، وبملاك ذلك ، وهو الصبر .

فكمل نفسه بالعلم النافع , والعمل الصالح ، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك ، ووصيته له بالصبر عليه ، ولهذا قال الشافعي رحمه الله : لو فكر الناس في سورة (والعصر) لكفتهم .

وهذا المعنى في القرآن في مواضع كثيرة يخبر سبحانه أن أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه ، وأهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه ، أو علموه وخالفوه واتبعوا غيره .

وقال في مفتاح دار السعادة : فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره .

قوله [وقال البخاري رحمه الله : بابٌ : العلم قبل القول والعمل . والدليل قوله تعالى ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ فبدأ بالعلم قبل القول والعمل] .

تبويب البخاري يدل على عظيم فقهه , وقوة استنباطه رحمه الله (١) .

وفي قوله تعالى ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ دليل على أن أول ما يجب علمه وتعلمه هو التوحيد .

ومناسبة ذكر كلام البخاري هنا : أن هذه الآية مصرحة بوجوب العلم ، لأنها جاءت بصيغة الأمر الدال على الوجوب , أما آية سورة العصر فهي عن طريق المفهوم .

ويمكن أن يكون مراده : الدلالة على ترتيب هذه المسائل ، فالعلم أولاً , ثم العمل , والله أعلم .

---

(١) ذكر الشيخ كلام البخاري بمعناه ، ونصه كما في صحيحه : باب العلم قبل القول والعمل ، لقول الله تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) فبدأ بالعلم . هذا نصه كما في فتح الباري ج١ص١٩٢ (مكتبة ابن تيمية) بدون زيادة (واستغفر لذنبك) – وهي موجودة في بعض النسخ – وبدون قوله (قبل القول والعمل) في الثانية .

اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم هذه المسائل الثلاث , والعمل بهن :

الأولى : أن الله خلقنا , ورزقنا , ولم يتركنا هملاً , بل أرسل إلينا رسولاً , فمن أطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار .

والدليل قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ .

الثانية : أن الله لا يرضى أن يُشرك معه أحد في عبادته , لا ملَك مقرب , ولا نبي مرسل .

والدليل قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ .

الثالثة : أن من أطاع الرسول , ووحد الله , لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله , ولو كان أقرب قريب.

والدليل قوله تعالى ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

هذه هي الرسالة الثانية .

وخلاصتها : وجوب تعلم هذه الثلاث مسائل ، ووجوب العمل بهن , وهي :

١. وجوب طاعة الرسول ﷺ .

٢. وجوب توحيد الله تعالى .

٣. وجوب معاداة من حاد الله ورسوله ﷺ .

وقد ذكر بعض الشراح أن المسألة الأولى تتكلم عن توحيد الربوبية , والثانية عن توحيد الألوهية , والثالثة عن الولاء والبراء .

ولا يظهر ذلك , لأن الأدلة التي ذكرها المصنف على كل مسألة تدل على أن المسألة الأولى في وجوب طاعة الرسول ﷺ , والثانية في وجوب توحيد الله , والثالثة في البراءة من المشركين .

ويدل على ذلك أيضاً قوله في المسألة الثالثة (أن من أطاع الرسول , ووحد الله) .

وذكر بعضهم أن خلاصة هذه المقدمة هو الكلام عن الولاء والبراء ، وأن المسألة الأولى والثانية تمهيد للثالثة ، فمن لازم الإيمان بالله وتوحيده ، وطاعة رسوله ﷺ أن تعادي من حاد الله ورسوله ﷺ إذ لا يجتمع في القلب التوحيد ونقيضه ، وتمام الطاعة وضدها .

وهذا صحيح من وجه ، لكن الأقرب أن كل مسألة مرادة لذاتها ، كما قال هنا (تعلم هذه الثلاث مسائل) .

والذي يظهر والله أعلم أن المصنف رتب هذه المسائل الثلاث ترتيباً مقصوداً , فبين في المسألة الأولى أن الله أرسل إلينا رسولاً , وأمرنا بطاعته , ثم بين في المسألة الثانية أن أعظم ما جاء به هذا الرسول هو الأمر بتوحيد الله عز وجل , ثم بين في المسألة الثالثة أن من لوازم هذا التوحيد معاداة من حاد الله ورسوله .

وانظر هذه الرسالة في الدرر السنية ج٢ص٨٠ , يتبين لك ما ذُكر , وكذلك في مجموعة التوحيد ص١٢ , حيث لم يذكر في المسألة الثالثة وجوب طاعة الرسول ﷺ , وقال : المسألة الثانية : أن أعظم ما جاء به هذا الرسول أن لا يشرك مع الله في عبادته أحداً , والله أعلم .

قوله [الأولى : أن الله خلقنا ......] .

هذه هي المسألة الأولى , **وخلاصتها** : وجوب طاعة الرسول ﷺ .

قوله [أن الله خلقنا] الآيات في ذلك كثيرة جداً , منها : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله [ورزقنا] الآيات في ذلك أيضاً كثيرة , منها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ .

قوله [ولم يتركنا هملاً] قال تعالى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ وقال تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾.

قوله [بل أرسل إلينا رسولاً] قال تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ .

قوله [فمن أطاعه دخل الجنة] قال تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ .

قوله [ومن عصاه دخل النار] قال تعالى ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

ثم ذكر الدليل على وجوب طاعة الرسول ﷺ .

قوله [الثانية : أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته لا ملك مقرب , ولا نبي مرسل . والدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾[1]] .

هذه هي المسألة الثانية , **وخلاصتها** : وجوب توحيد الله .

وقد جاء في آيات كثيرة جداً النهي عن الشرك وذمه , وذم أهله , وأخبر سبحانه أنه لا يرضى لعباده الكفر .

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم قال ﷺ : قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه .

ونص المصنف على الملك المقرب , والنبي المرسل ، لدخول غيرهما من باب أولى .

---

(١) المساجد : إما أن يراد بها : أعضاء السجود , أو مواضع السجود (المساجد) , أو ذات السجود , على أقوال .

قوله [الثالثة : أن من أطاع الرسول , ووحد الله لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب . والدليل قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا...... ﴾] .

هذه هي المسألة الثالثة , **وخلاصتها** : وجوب معاداة الكفار , كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام ومن معه على الطريق من الأنبياء(١) : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ .

وهذه المسألة من أهم مسائل الدين , وهي البرهان على صدق المحبة والإيمان , فلا إيمان صادق إلا بالبراءة من الشرك وأهله .

قال ﷺ : إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله , وتبغض في الله . رواه أحمد , وحسنه الألباني .

يقول ابن تيمية عن الآية السابقة التي ذكرها المصنف (لا تجد قوماً.....) : فأخبر أنك لا تجد مؤمناً يواد المحادين لله ورسوله ، فإن نفس الإيمان ينافي موادته ، كما ينفي أحد الضدين الآخر ، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده وهو موالاة أعداء الله ، فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب .

وأصل الموالاة : من الولاية وهي المحبة ، قال تعالى ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ ﴾ هنالك المحبة , والمودة , والنصرة لله .

والكلام عن هذه المسألة وفروعها نرجه إلى شرح رسالة (نواقض الإسلام) إن شاء الله , لكن مما يحسن التنبيه عليه هنا أن نقول :

موالاة الكفار على قسمين :

١. مخرجة من الملة (الموالاة الكبرى) ولها صور منها :

محبة دين الكفار ، أو محبة الكافر لدينه , أو تصحيح دين الكفار , أو محبة أن ينتصر الكفار على المسلمين دوماً بقصد ظهور الكفر .

٢. غير مخرجة من الملة وهي جرم عظيم ، وضابطها : كل ما كان وسيلة إلى الموالاة الكبرى .

وأنواعها كثيرة منها : تقديمهم في المجالس ، وتوليتهم على المسلمين ، والتشبه بهم ، وإكرامهم .

وينبه هنا إلى أن البر , والقسط مع الكفار لا بأس به , كما قال تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) كذلك لا بأس بالتعامل معهم في البيع والشراء , والزيارة للمصلحة , والإهداء إليهم , وفي كل ذلك جاءت السنة , والمنهي عنه هو المودة القلبية , وكل ما يؤدي إليها من الأقوال والأفعال .

قال السعدي في تفسيره : ولما نزلت هذه الآيات الكريمات (سورة الممتحنة) المهيجة على عداوة الكافرين ، وقعت من المؤمنين كل موقع ، وقاموا بها أتم القيام ، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين ، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه , فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم فقال (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) أي : لا ينهاكم الله عن البر والصلة ، والمكافأة بالمعروف ، والقسط للمشركين ، من أقاربكم وغيرهم ، حيث كانوا بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين , والإخراج من دياركم ، فليس عليكم جناح أن تصلوهم ، فإن صلتهم في هذه الحالة لا محذور فيها , ولا مفسدة , كما قال تعالى عن الأبوين المشركين إذا كان ولدهما مسلماً (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً) .

---

(١) قيل : من معه من المؤمنين , وقيل : من معه على الطريق من الأنبياء , وهو الأقرب , ورجحه ابن جرير في تفسيره .

وقوله (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين) أي : لأجل دينكم ، عداوة لدين الله ولمن قام به (وأخرجوكم من دياركم وظاهروا) أي : عاونوا غيرهم (على إخراجكم) نهاكم الله (أن تولوهم) بالمودة والنصرة ، بالقول والفعل ، وأما بركم وإحسانكم الذي ليس بتولٍ للمشركين ، فلم ينهكم الله عنه ، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الآدميين ، وغيرهم (ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) وذلك الظلم يكون بحسب التولي ، فإن كان تولياً تاماً صار ذلك كفراً مخرجاً عن دائرة الإسلام ، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ ، وما هو دون ذلك أ.هـ

اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم : أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين .

وبذلك أمر الله جميع الناس , وخلقهم لها , كما قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .

ومعنى يعبدون : يوحدون .

وأعظم ما أمر الله به التوحيد ، وهو إفراد الله بالعبادة .

وأعظم ما نهى عنه الشرك , وهو دعوة غيره معه .

والدليل قوله تعالى ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ ﴾ .

هذه هي الرسالة الثالثة .

وخلاصتها : بيان حقيقة توحيد العبادة ، وبيان أهميته .

قوله [اعلم أرشدك الله لطاعته] جملة دعائية , فيها تلطف , ولين , وشفقة , والرشد ضد الغي .

قوله [أن الحنيفية(١)ملة إبراهيم : أن تعبد الله مخلصاً له الدين] .

حقيقة توحيد العبادة (الألوهية) : أن يُفرد الله بالعبادة والتوجه والقصد , فلو أن شخصاً عبدَ الله ليلَ نهارَ ثم توجه بعبادة لغير الله فقد خرج من دائرة الإسلام إلى دائرة الشرك .

قال ابن تيمية : والقرآن كله يدل على أن الحنيفية هي ملة إبراهيم ، وأنها عبادة الله وحده , والبراءة من الشرك , وعبادته سبحانه إنما تكون بما أمر به وشرعه ، وذلك يدخل في الحنيفية , ولا يدخل فيها ما ابتدع من العبادات .

والحنيف(٢) هو المقبل على الله , المعرض عما سواه , وفسرها المصنف هنا : أن تعبد الله مخلصاً له الدين , وهذا هو التوحيد الذي جاءت به الرسل .

قال ابن تيمية : الدين الحنيف هو : الإقبال على الله وحده , والإعراض عما سواه ، وهو الإخلاص الذي ترجمته كلمة الحق ، والكلمة الطيبة (لا إله إلا هو) أ.هـ

وملة إبراهيم التي أمر الله رسوله ﷺ باتباعها ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ هي ملة جميع الرسل , وهي ملة التوحيد .

---

(١) وأما حديث (بعثت بالحنيفية السمحة) فسنده فيه مقال , وقد ضعفه ابن رجب .

قال ابن تيمية : فالحنيفية ضد الشرك , والسماحة ضد الحجر والتضييق . وقال ابن القيم : أي : بالملة ، فهي حنيفية في التوحيد ، سمحة في العمل .

(٢) الحنيف مشتق من الحَنَف , وقد ذهب كثير من أهل اللغة إلى أن الحنف هو الميل , وأن الحنيف هو المائل إلى الخير

وذهب بعضهم إلى أن الحنف : الميل إلى الخير , والجنف : الميل إلى الشر .

وقد بحث ابن تيمية المسألة في مبحث خاص يحسن الرجوع إليه , وذكر أن الحنيف هو المقبل , وقال : وللسلف في الحنيف عبارات ، قيل : المستقيم ،كقول محمد بن كعب القرظي , والمتبع ، كقول مجاهد , والمخلص ،كقول عطاء , وأما تفسيره بالمائل فهذا من قول بعض متأخري أهل اللغة .

وقال ابن القيم في جلاء الأفهام : والحنيف : المقبل على الله , المعرض عما سواه , ومن فسره بالمائل فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ , وإنما فسره بلازم المعنى , فإن الحنف : هو الإقبال , ومن أقبل على شيء مال عن غيره , والحنف في الرجلين هو إقبال إحداهما على الأخرى , ويلزمه ميلها عن جهتها .

وقال في مفتاح دار السعادة : والحنيف : المقبل على الله , ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه , فالميل لازم معنى الحنيف , لا أنه موضوعه لغة .

وقد كان العرب في الجاهلية ينسبون أنفسهم إلى ملة إبراهيم , مخالفين من سواهم من الصابئة , وأهل الكتاب , وكانوا يحجون البيت , ويختتنون , خلافاً لغيرهم .

قال أبو عبيد : الحنيف عند العرب من كان على دين إبراهيم .

وجاء في جمهرة اللغة : قال أبو حاتم : قلت للأصمعي : من أين عُرف في الجاهلية الحنيف ؟

قال : لأنه كل من عدل عن دين النصارى فهو حنيف عندهم أ.هـ

وحقيقة الحال أنهم مخالفون تماماً لملة إبراهيم , كما هو معلوم من حالهم .

قوله [وبذلك أمر الله جميع الناس , وخلقهم لها كما قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ومعنى يعبدون : يوحدون] .

أما أمره سبحانه فجاء في آيات كثيرة , منها أول أمر في القرآن من حيث ترتيب المصحف ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ .

وأما خلقه الناس لها فقوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .

وتفسير يعبدون بـ(يوحدون) هذا من تفسير الشيء بأخص أفراده , أو بأعظم أفراده .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : والعبادة هي التوحيد , لأن الخصومة بين الأنبياء والأمم فيه .

وقد روى ابن جرير , وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه فسر الآية بقوله : إلا ليقروا لي بالعبودية طوعاً وكرهاً .

قوله : [وأعظم ما أمر الله به التوحيد ، وهو إفراد الله بالعبادة ، وأعظم ما نهى عنه الشرك وهو دعوة غيره معه ، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾] .

لقد أمر الله سبحانه بأوامر كثيرة , ونهى عن أشياء كثيرة , ولكن أعظم ما أمر به هو التوحيد , لأنه لا شيء أجل قدراً , ولا أعظم أجراً منه , ولا يحصل نعيم في الدنيا ولا في الآخرة إلا به , وضد ذلك الإشراك بالله , ولذا أجمعت الرسل على هذه الدعوة , قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ .

يقول ابن تيمية : ولا أنفع للقلب من التوحيد , وإخلاص الدين لله , ولا أضر عليه من الإشراك .

ويقول أيضاً : ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله , وعبادته , وطاعة رسوله ﷺ , وكل شر في العالم , وفتنة , وبلاء , وقحط , وتسليط عدو , وغير ذلك , فسببه مخالفة الرسول ﷺ , والدعوة إلى غير الله , ومن تدبر هذا حق التدبر , وجد هذا الأمر كذلك , في خاصة نفسه , وفي غيره , عموماً وخصوصاً .

ويقول ابن القيم : ما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد , ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد , ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد , فلا يُلقي في الكُرَب العظام إلا الشرك , ولا ينجي منها إلا التوحيد , فهو مفزع الخليقة , وملجؤها , وحصنها , وغياثها .

وهذه الآية التي ذكر المصنف جمعت بين الأمر بعبادة الله , والنهي عن مشاركة غيره معه , وهذا هو التوحيد .

فإذا قيل لك : ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها ؟

فقل : معرفة العبد ربه ، ودينه ، ونبيه محمداً ﷺ .

من هنا تبدأ رسالة (الأصول الثلاثة) كما سبق تقريره في مقدمة الشرح .

وخلاصة هذا المقطع : ذكر الأصول الثلاثة مجملة , وسوف يفصلها بأدلتها أثناء الرسالة .

والأصول : جمع أصل ، وهو في **اللغة** : أسفل الشيء , وأساسه . وهو ما يُبنى عليه غيره .

ومنه أصل الجدار , وهو أساسه الذي يبنى عليه , وأصل الشجرة , وهو جزءها الثابت في الأرض .

قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

قوله [معرفة العبد ربه] يشمل : معرفته بما له من الربوبية ، والألوهية ، والأسماء والصفات .

وهذا أعظم المطالب , يقول ابن تيمية : اللذة , والفرحة , والسرور , وطيب الوقت , والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه , إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى , وتوحيده , والإيمان به .

وقال في الفتوى الحموية : فإن معرفة هذا أصل الدين , وأساس الهداية , وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب , وحصلته النفوس , وأدركته العقول .

وقال ابن القيم : من عرف الله بأسمائه , وصفاته , وأفعاله أحبه لا محالة .

قوله [ودينه] يشمل معرفة مراتب الدين الثلاثة (الإسلام , والإيمان , والإحسان) وأحكام الشريعة من الحلال والحرام .

والواجب من ذلك : معرفة ما يصحح إسلامه من أمور الدين ، وكلما ازداد من تعلم أمور الدين أجر على ذلك .

قوله [ونبيه ﷺ] وذلك بمعرفة سيرته إجمالاً ، ومعرفة ما جاء به من الدين ، والتصديق بذلك .

فإن قيل لك : من ربك ؟

فقل : ربي الله الذي رباني , وربى جميع العالمين بنعمه .

وهو معبودي , ليس لي معبود سواه .

والدليل قوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وكل ما سوى الله عالم ، وأنا واحد من ذلك العالم .

بعد أن ذكر المصنف الأصول الثلاثة مجملة ، بدأ هنا بالتفصيل , وبدأ بمعرفة الرب .

ومعرفة الرب بحسب ما ذكره المصنف هنا تتضمن أمرين :

١. **معرفة أنه الرب** (توحيد الربوبية) .

٢. **معرفة أنه المعبود وحده** (توحيد الألوهية) .

والرب في اللغة يطلق على المالك , والسيد , والمدبر , والقيم , والمنعم .

ومن ذلك قوله تعالى في قصة يوسف ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ أي : سيدي , ومنه قوله تعالى في حق الوالدين ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ .

قال ابن تيمية : والرب هو المربي , الخالق , الرازق , الناصر , الهادي .

وتربية الله لعباده تشمل : الخلق , والرزق , والحفظ , وسائر النعم , وأعظم أنواع التربية إرسال الرسل , وإنزال الكتب .

والرب لا يطلق معرفاً بالألف واللام إلا على الله تعالى , ويأتي التفصيل في ذلك عند شرح كتاب التوحيد بإذن الله تعالى .

قوله [ربي الله الذي رباني , وربى جميع العالمين بنعمه ، وهو معبودي ليس لي معبود سواه] .

جمعت هذه الجملة بين توحيد الربوبية بقوله (ربي الله الذي رباني) وتوحيد الألوهية بقوله (وهو معبودي) .

وفي قوله [معبودي ليس لي معبود سواه] جمع بين الإثبات والنفي , وهما ركنا التوحيد .

قوله [والدليل قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وكل ما سوى الله عالم , وأنا واحد من ذلك العالم] .

هذا دليل قوله (من ربك؟) والجواب : رب العالمين جميعاً , وأنا منهم . قال تعالى ﴿ قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ﴾ .

وذلك أن الوجود قسمان : رب , ومربوب .

وسموا عالمين , لأنهم عَلَمٌ على خالقهم , ومالكهم , ومدبرهم .

فإن قيل لك : بم عرفت ربك ؟

فقل : بآياته , ومخلوقاته .

ومن آياته : الليل , والنهار , والشمس , والقمر .

ومن مخلوقاته : السماوات السبع , والأرضون السبع , ومن فيهن , وما بينهما .

والدليل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : ذكر الدليل على وجود الله ، وتفرده بالربوبية .

قوله [بم عرفت ربك] أي : بم عرفت وجود ربك .

فذكر هنا الوسيلة العقلية التي يُستدل بها على وجود الرب سبحانه , وهي الآيات , والمخلوقات , وذكر بعضاً منها .

ودلالة الآيات المذكورة على وجود الله : أنها موجودة , والموجود الحادث لا بد له من موجد , وأنها تسير بنظام ، فدل أن لها رباً يدبرها , ويسيرها بهذا النظام , قال تعالى (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌ في فلك يسبحون) .

ودلالة المخلوقات على وجود الله : أنها مخلوقات ، أي وجدت بعد أن لم تكن موجودة ، وهذا يدل أن لها رباً خلقها , وأوجدها .

فكل الوجود يشير إلى الموجود ، والمعبود .

فواعجباً كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أبداً شاهد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد

تنبيه : الآيات والمخلوقات في الكتاب والسنة بينهما فرق ، فالآيات أعم ، وهي نوعان :

١. **آيات شرعية** : وهي ما أنزل الله على رسله من الوحي .

٢. **آيات كونية** : وهي المخلوقات .

وأما في كلام المصنف فهما شيء واحد , لأن الآيات التي ذكرها آيات كونية (مخلوقات) وإنما فرق بينهما في اللفظ ، لموافقة لفظ ما استدل به من الآيات .

وعليه تكون الواو في قوله (بآياته ومخلوقاته) ليست للمغايرة ، وإنما من باب عطف الخاص على العام , لأن المخلوقات هي الآيات الكونية .

والرب هو المعبود ، والدليل قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة .

خلاصة هذا المقطع : ذكر الدليل على وجوب إفراد الله بالألوهية والعبادة .

قوله [والرب هو المعبود] يعني المستحق للعبادة .

بعد أن ذكر المصنف الدليل على تفرد الله بالربوبية ، ذكر الدليل على وجوب إفراده بالألوهية والعبادة ، وهذا من أعظم وأكثر الأساليب التي جاءت في القرآن لتقرير المشركين بتوحيد الألوهية ، فينطلق معهم من الأمر الذي يقرون به – في الجملة – وهو توحيد الربوبية إلى الأمر الذي ينكرونه , وهو توحيد الألوهية ، وهذا الأسلوب من أعظم أساليب الإقناع(١) , ولذا ذكر ابن كثير أن الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة(٢).

والمعنى : إذا كنت تقر أن الله هو المنعم عليك بجميع النعم ، من : الخلق ، والرزق ، والحفظ ، والرعاية ..... وبيده وحده نفعك وضرك ، وصحتك ومرضك ، وحياتك وموتك .... فلم تعبد غيره ؟! ولم ترجو النفع ، وتخش الضر من غيره ؟!

ولذا لما أنكر إبراهيم عليه السلام على قومه عبادة غير الله قال لهم محقراً آلهتهم (هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون) ثم قال معتزاً بربه (فإنهم عدوٌ لي إلا رب العالمين * الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميتني ثم يحيين) هذا هو المستحق للعبادة وحده .

وقد أخرج الترمذي عن عمران بن حصين قال : قال النبي ﷺ لأبي : يا حصين : كم تعبد اليوم إلهاً ؟ قال أبي : سبعة ، ستاً في الأرض ، وواحداً في السماء ، قال : **فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك**؟ قال : الذي في السماء ، قال : يا حصين ، أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك , قال : فلما أسلم حصين قال : يا رسول الله ، علمني الكلمتين اللتين وعدتني ، فقال : قل اللهم ألهمني رشدي ، وأعذني من شر نفسي . قال الترمذي : هذا حديث غريب .

والشاهد أن النبي ﷺ لفت نظر حصين إلى أن الإله الذي يستحق أن يُقصد هو من ينفع ويضر .

وقد قال بعض أهل العلم : إذا كان الله واحد في أفعاله , فوحده بأفعالك .

وقيل : الواحد في القصد هو الواحد في الخلق .

---

(١) وقد ذكر الشيخ الهراس في كتابه (دعوة التوحيد) طرق القرآن في تقرير توحيد الألوهية , فليرجع إليه .

(٢) وهذه العبارة هي خلاصة مقصود ابن كثير , وليست من لفظه , ومراد الشيخ تقريب العلم لعوام الناس بأقرب عبارة .

وأما لفظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية فقوله (ومضمونه : أنه الخالق , الرازق , مالك الدار وساكنيها , ورازقهم , فبهذا يستحق أن يُعبد وحده لا يشرك به غيره) .

– سبق أن ذكرنا أن المصنف تضمن كلامه في معرفة الرب أمران :

١. أنه الرب : وذكر الدليل ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهذا توحيد الربوبية .

٢. أنه المعبود : وهنا ذكر الدليل على ذلك ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ ... ﴾ وهذا توحيد الألوهية .

فبعد أن قرر المصنف العبد أن الله هو ربه ، لأنه رب العالمين جميعاً – وهو واحد منهم – وأن الآيات والمخلوقات التي يشاهدها يومياً , ويعايشها هي دليلٌ وطريق إلى معرفة هذا الرب ، لزمه عند ذلك أن يفرد هذا الرب بالعبادة ، لأن الإنسان لابد أن يعبد شيئاً – وإلا عبد هواه – فإذا كان لابد أن يعبد شيئاً , فليعبد خالقه , والمنعم عليه , وخالق كل شيء .

قال ابن القيم : هربوا من الرّقِ الذي خُلقوا له فبُلُوا برِقِ النفس والشيطان

وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان .

ومنها : الدعاء ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والرغبة ، والرهبة ، والخشوع ، والخشية ، والإنابة ، والاستعانة ، والاستعاذة ، والاستغاثة ، والذبح ، والنذر , وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها لله تعالى .

والدليل قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ .

فمن صرف منها شيئاً لغير الله , فهو مشرك كافر .

والدليل قوله تعالى ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : ذكر بعض العبادات التي يجب صرفها لله وحده .

بعد أن قرر المصنف أن الله هو المعبود , ذكر بعض أنواع العبادات التي يُعبد بها هذا الرب , وإنما ذكر ذلك لأمرين :

١. أن يُعبد الله بها فلا تهجر .

٢. ألا تصرف لغيره , وإلا كان شركاً , قال تعالى ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

ويلاحظ في أنواع العبادات التي ذكرها المصنف أن أكثرها عبادات قلبية .

قوله [مثل : الإسلام , والإيمان , والإحسان] .

ظاهر كلام المصنف أن هذه الثلاثة من أنواع العبادة , وهذا فيه إشكال , لأن هذه هي مراتب الدين ، كما في حديث عمر الآتي , فبعد أن ذكر هذه الثلاث مراتب قال ﷺ : هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم .

لكن نحمل كلام المصنف أن ما ذكره من الإسلام ، والإيمان ، والإحسان يقصد أن أركانها من العبادة , وأن هذه هي أصول العبادات .

ولذلك لما سرد بعد ذلك أدلة أنواع العبادة لم يسرد أدلة هذه الثلاث مراتب ، لأنه سيتكلم عنها مفصلة في الأصل الثاني .

وقوله هنا (فهو مشرك كافر) مشرك لأنه أشرك مع الله غيره , وكافر لأنه جحد حقاً لله فصرفه لغيره .

والقاعدة : أن كل مشرك كافر , وليس كل كافر مشركاً , كمن يكفر بسب الله مثلاً .

وفي الحديث (الدعاء مخ العبادة)[١] , والدليل قوله تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

ودليل الخوف : قوله تعالى ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

ودليل الرجاء : قوله تعالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ .

ودليل التوكل : قوله تعالى ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وقوله ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ .

ودليل الرغبة ، والرهبة ، والخشوع : قوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ .

ودليل الخشية : قوله تعالى ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ ﴾ .

ودليل الإنابة : قوله تعالى ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ .

ودليل الاستعانة : قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وفي الحديث (إذا استعنت فاستعن بالله)[٢].

ودليل الاستعاذة : قوله تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .

ودليل الاستغاثة : قوله تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ .

ودليل الذبح : قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي[٣] وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ومن السنة : لعن الله من ذبح لغير الله .

ودليل النذر : قوله تعالى ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : ذكر أدلة العبادات التي ذكرها قبل ذلك .

بعد أن ذكر المصنف أنواع العبادات سرداً ، وذكر الدليل على أن من صرف عبادة لغير الله فهو مشرك ، أردف بعدها أدلة هذه العبادات التي تبين أن ما ذكره فعلاً عبادة ، وإذا ثبت أنها عبادة فصرفها لغير الله شرك أكبر .

---

(١) ومعنى مخ العبادة , أي : صميمها , لأن الجسد يتغذى على المخ , فإذا فقد المخ ذهب الجسد وبلي .

وهذا الحديث الذي ذكره المصنف رواه الترمذي من حديث أنس ، وقال : حديث غريب .

والحديث فيه ابن لهيعة , وهو ضعيف ، لكن يشهد له حديث النعمان بن بشير الذي رواه أحمد , وأصحاب السنن الأربعة (الدعاء هو العبادة) وهو حديث صححه جماعة , منهم الترمذي ، وقال ابن حجر في الفتح : أخرجه أصحاب السنن بسند جيد . وصححه الألباني .

(٢) حديث مشهور أوله (احفظ الله يحفظك) أخرجه أحمد , والترمذي ، وصححه الألباني .

(٣) النسك بمعنى العبادة ، ويأتي بمعنى الذبح ، وعليه جمهور المفسرين في الآية ، وهو كقوله تعالى (فصل لربك وانحر) .

مسألة : من أين نأخذ من الآيات أن هذه الأمور عبادات ؟

الجواب : نرجع إلى تعريف العبادة بأفرادها , وهي ما عرفها به ابن تيمية رحمه الله : كل ما يحبه الله , ويرضاه من الأقوال والأفعال , الظاهرة والباطنة[١] .

فنعرف العبادة بأمور :

١. أن يأتي الأمر بها : لأن الله لا يأمر إلا بما يحبه ويرضاه , سواء كان الأمر واجباً , أم مندوباً .

٢. أن يأتي بصيغة المدح والثناء عليها ، أو على أهلها , لأن الله لا يثني إلا على ما يحبه ويرضاه . كقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ .

٣. أن يرتب الثواب عليها , كما في قوله ﷺ : من صام يوماً في سبيل الله ، بعَّد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً . متفق عليه

تنبيه : جميع هذه الأمور المذكورة عبادات لا يجوز صرفها على وجه التعبد إلا لله ، ومن صرفها على وجه التعبد لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر , والعياذ بالله ، وهذه الأمور قد تصرف لغير الله على غير جهة التعبد ، وهذا جائز على تفصيل في كلٍ منها ، يأتي عند شرح كتاب التوحيد إن شاء الله تعالى ، لأن المصنف أفرد لها أبواباً في كتاب التوحيد ، ومقام هذه الرسالة لا يحتمل التفصيل .

وخلاصة الأصل الأول : أن الرب الخالق سبحانه أقام الدلائل الكثيرة على معرفته , من خلق السموات والأرض , وانتظام سير الكون , وغير ذلك , ومن تفرد بذلك وجب أن يُفرد بالعبادة دون سواه , سواء العبادات القلبية أو العملية , ومن صرف نوعاً من العبادة لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر .

---

(١) وأما حقيقة العبادة فهي ما جمع بين كمال الحب , مع كمال التعظيم والخضوع في العبادة .

قال ابن تيمية : العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل , وذلك لا يستحقه إلا الله وحده .

وقال ابن القيم في الجواب الكافي : ومن خصائص الإلهية : العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما : غاية الحب ، مع غاية الذل , هذا تمام العبودية ، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين .

وقال في مدارج السالكين : والعبادة تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع ، والعرب تقول : طريق معبد . أي : مذلل ، والتعبد : التذلل والخضوع ، فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له ، لم تكن عابداً له ، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له , حتى تكون محباً خاضعاً .

وقال في النونية : وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده هما قطبان

الأصل الثاني : معرفة دين الإسلام بالأدلة ، وهو : الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والبراءة من الشرك , وأهله .

وهو ثلاث مراتب : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان .

وكل مرتبة لها أركان .

خلاصة هذا المقطع : بيان الأصل الثاني ، وهو معرفة الدين ، وبيان أنه ثلاث مراتب ، وأن لكل مرتبة أركان .

قوله [معرفة دين الإسلام بالأدلة] ومراده بالإسلام هنا (الدين) وليس الإسلام المقابل للإيمان والإحسان .

قوله [وهو الاستسلام لله بالتوحيد] الاستسلام : مشتق من التسليم والانقياد والخضوع ، كما يقال : استسلم فلان للقتل , أي : أسلم نفسه , وانقاد وخضع .

والاستسلام لله على ضربين :

١. الاستسلام الشرعي : وهو الإذعان لله اختياراً , وذلك بتوحيده وإفراده بالعبادة والطاعة .

وهذا هو المطلوب من العبد , وهو الذي يحمد عليه , ويثاب عليه .

٢. الاستسلام القدري الكوني : وهو الإذعان لله اضطراراً , بحيث لا يخرج مخلوق عن قدرة الله عليه .

وهذا الذي لا حيلة للإنسان فيه ، ولا يثاب عليه ، قال تعالى (وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً) .

قوله [والانقياد له بالطاعة] وذلك بفعل المأمور , واجتناب المحظور , فلا بد من العمل , ولابد أن يكون ذلك عن اختيار , فتبين أن مراد الشيخ الاستسلام الشرعي .

قوله [والبراءة من الشرك , وأهله] من لوازم الشهادة : البراءة من الشرك وأهله , وذلك أصل من أصول الدين .

فلا بد أن يجتمع في المرء حتى يكون مسلماً هذه الثلاثة أمور المذكورة في تعريف المصنف لدين الإسلام , ولو تخلف أحدها لم يكن مسلماً ، فلو أقر لله بالتوحيد ولم يعمل به فهو كافر ، ولو عمل ظاهراً , وهو لم يستسلم بقلبه فهو كافر – كحال أهل النفاق الكلي – ولو لم يبغض الشرك , ويتبرأ منه فإنه ليس بمسلم ، فلو كان يحب الإسلام وأهله ، ولكنه لا يبغض الشرك وأهله فإنه ليس بمسلم (١) .

تنبيه : ذكر الشيخ إبراهيم الخريصي في (التنبيهات المختصرة) أنه وقع في بعض نسخ الأصول الثلاثة ونحوها عبارة (والخلوص من الشرك وأهله) بدل (البراءة) وذكر أنه في النسخ المعتمدة (البراءة) لأن الخلوص من الشرك لا يكفي وحده ، بل لابد معه من البراءة من أهله وتكفيرهم . كما قال إبراهيم عليه السلام وسائر الرسل لأقوامهم ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ .

---

(١) ولكن قد يبغض الشرك وأهله باعتبار الأصل ، لكنه يحب بعض المشركين لغرض من أغراض الدنيا ، فهذا لا يكفر الكفر الأكبر , ولكن ينقص إيمانه بذلك .

يقول ابن تيمية : وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم , أو حاجة فتكون ذنباً ينقص به إيمانه , ولا يكون به كافراً , كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة .

قوله [وهو ثلاث مراتب : الإسلام , والإيمان , والإحسان] .

المرتبة : هي المنزلة ، ومن فقه المصنف أنه لم يقل (ثلاثة أنواع) أو(ثلاثة أقسام) ليشعر أنها مراتب ودرجات ، مرتبة تعلوها مرتبة. فالمسلم ، والمؤمن ، والمحسن الجميع من أهل دين الإسلام , لكن لكلٍ مرتبته الخاصة به .

فالإسلام هو إقامة الأعمال الظاهرة , مع بعض الإيمان القلبي الذي يصحح هذا العمل الظاهر , وإلا كان منافقاً .

والإيمان : هو الإيمان بأركان الإيمان الستة , وتحقيق مقامات القلب , مع بعض أعمال الإسلام الظاهرة التي بها يصح هذا الإيمان الباطن , وإلا كان كاذباً .

والإحسان : هو مقام مراقبة الله جل وعلا .

قال ابن أبي شيبة : لا يكون إسلام إلا بإيمان , ولا إيمان إلا بإسلام .

وقال ابن باز : فلا إسلام إلا بإيمان ، ولا إيمان إلا بإسلام ، فلا بد من هذا وهذا .

مسألة : ذكر الشيخ هنا أن الواجب في هذا العلم أن يكون بالأدلة , فقال رحمه الله في الرسالة الأولى : (الأولى : العلم ، وهو معرفة الله ، ومعرفة نبيه ، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة) وقال هنا (معرفة دين الإسلام بالأدلة) .

وهذه مسألة تعرف عند العلماء بمسألة (التقليد في العقائد وأصول الدين) هل يصح , أو لا بد من معرفة الدليل ؟

وقد اختلف أهل العلم في ذلك على أقوال , فمنهم من أوجب العلم بالدليل النقلي , ومنهم من أوجب النظر , ومنهم من أجاز التقليد مطلقاً , ومنهم من أجازه مع الجزم , ومنهم من فرق بين مسائل الاعتقاد الظاهرة والخفية .

والحق أنه لم يقم دليل صحيح صريح على وجوب الدليل , أو النظر , وعليه فالصحيح **جواز التقليد إذا جزم** صاحبه بذلك بأي وسيلة , ولم يكن ذلك عن شك وتردد , والله أعلم .

ويجدر التنبيه هنا أن هذه المسألة من المسائل التي جاء بها المتكلمون , ولا تُعرف هذه المسألة عند الصحابة والتابعين , وليس في الأدلة الشرعية ما يدل عليها بخصوصها , والله أعلم .

قال النووي : الآتي بالشهادتين مؤمن حقاً , وإن كان مقلداً على مذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف , لأنه ﷺ اكتفى بالتصديق بما جاء به , ولم يشترط المعرفة بالدليل .

وقال ابن تيمية رحمه الله : أما المسائل الأصولية فكثير من المتكلمة ، والفقهاء من أصحابنا ، وغيرهم , من يوجب النظر والاستدلال على كل أحد , حتى العامة , والنساء.... وأما جمهور الأمة فعلى خلاف ذلك ، فإن ما وجب علمه إنما يجب على من يقدر على تحصيل العلم ، وكثير من الناس عاجز عن العلم بهذه الدقائق , فكيف يكلّف العلم بها ؟ وأيضاً فالعلم قد يحصل بلا نظر خاص ، بل بطرق أُخر , من : اضطرار , وكشف ، **وتقليد من يعلم أنه مصيب** , وغير ذلك **.**

وقال السفاريني رحمه الله : والحق الذي لا محيد عنه ، ولا انفكاك لأحد منه ، صحة إيمان المقلد تقليداً جازماً صحيحاً , وأن النظر والاستدلال ليسا بواجبين ، وأن التقليد الصحيح محصل للعلم والمعرفة .

وقد رجح شيخنا ابن عثيمين رحمه الله صحة التقليد في المسائل التي يُطلَب فيها الجزم ، وأشار إلى أن القول بمنع التقليد في ذلك ضعيف .

واستدل من قال بجواز التقليد بقوله تعالى ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فاكتفى بالأمر بالسؤال فقط .

وبأن النبي ﷺ لم يكن يأمر من شهد الشهادة عند إسلامه بحفظ الدليل عليها .

وأيضاً قوله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا (لا إله إلا الله) فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه , وحسابه على الله . متفق عليه

فاكتفى بالشهادة , ولم يذكر وجوب الدليل عليها , أو وجوب النظر .

وقد أطال الشيخ صديق حسن خان في كتابه (الدين الخالص) الكلام في هذه المسألة , ومن جميل ما ذكر قول ابن حجر في فتح الباري : والعجب أن من اشترط ذلك من أهل الكلام ينكرون التقليد وهم أول داعٍ إليه , حتى استقر في الأذهان أن من أنكر قاعدة من القواعد التي أصلوها فهو مبتدع ولو لم يفهمها ولم يعرف مأخذها , وهذا هو محض التقليد .

وقال الشيخ عبد الرحمن البراك : وأما القول بتحريم التقليد في مسائل الاعتقاد فهو قول طوائف من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم ، وهو يقتضي أن عوام المسلمين آثمون , أو غير مسلمين ، وهذا ظاهر الفساد .

وأما قول الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ومعرفة دين الإسلام بالأدلة) فهو كما قال ، فإن الواجب أن يعرف المسلم أمور دينه بأدلتها من الكتاب والسنة إذا كان مستطيعاً لذلك ، وهذا هو الواجب ، إما أن يكون فرض عين في مسائل ، وإما أن يكون فرض كفاية في مسائل أخرى .

وأصل دين الإسلام هو معرفة الله والإيمان به ، وهو يحصل بالنظر ، والاستدلال , ويحصل بمقتضى الفطرة التي فطر الله الناس عليها إذا سلمت من التغيير ، واختلف الناس في اشتراط النظر والاستدلال في معرفة الله ، وهل يصح إسلام العبد بدونه أو لا ؟ على مذاهب ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية فقال : تنازع النظار في مسألة وجوب النظر المفضي إلى معرفة الله تعالى على ثلاثة أقوال :

فقالت طائفة من الناس : إنه يجب على كل أحد .

وقالت طائفة : لا يجب على أحد .

وقال الجمهور : إنه يجب على بعض الناس دون بعض , فمن حصلت له المعرفة لم يجب عليه ، ومن لم تحصل له المعرفة ولا الإيمان إلا به وجب عليه ، وذكر غير واحد أن هذا قول جمهور المسلمين ، كما ذكر ذلك أبو محمد بن حزم في كتابه المعروف (بالفصل في الملل والنحل) فقال في مسألة : هل يكون مؤمناً من اعتقد الإسلام دون استدلال أم لا يكون مؤمناً مسلماً إلا من استدل ؟ وفيه : قال سائر أهل الإسلام : كل من اعتقد بقلبه اعتقاداً لا يشك فيه ، وقال بلسانه : أشهد ألا إله إلا الله , وأن محمداً رسول الله ، وأن كل ما جاء به حق ، وبريء من كل دين سوى دين محمد , فإنه مسلم , مؤمن ليس عليه غير ذلك .

انتهى مختصراً من درء تعارض العقل والنقل ٤٠٥/٧-٤٠٧ أ.هـ[1]

---

(١) وقد يخلط بعض من تكلم في المسألة بين كلام من منع ذلك من أهل السنة , ومن منع ذلك من أهل الكلام في سبب منع التقليد , كما يخلط بين الصور المذكورة هنا .

وعلى سبيل المثال فقد نقل الشيخ عبدالله أبا بطين الإجماع على أنه لا يجوز التقليد في أصول الدين , ومرة ذكر أنه قول عامة أهل العلم , **لأن أدلتها ظاهرة** , وانظر الدرر السنية ج١٢ص١٤٣وص١٧١ .

ومع ذلك قال الشيخ عبدالله أبا بطين في الدرر السنية ج٤ص٣٣٩ : فرض على كل أحد معرفة التوحيد وأركان الإسلام بالدليل , ولا يجوز التقليد في ذلك , لكن العامي الذي لا يعرف الأدلة إذا كان يعتقد وحدانية الرب سبحانه , ورسالة محمد , ويؤمن بالبعث بعد الموت , والجنة والنار , ويعتقد أن هذه الأمور الشركية التي تفعل عند هذه المشاهد باطلة وضلال , فإذا كان يعتقد ذلك اعتقاداً جازماً لا شك فيه فهو مسلم , وإن لم يترجم بالدليل , لأن عامة المسلمين ولو لقنوا الدليل فإنهم لا يفهمون المعنى غالباً أ.هـ

فلذا جرى التنبيه , حتى لا ينسب لأهل العلم ما لم يقصدوه .

فأركان الإسلام خمسة : شهادة ألا إله إلا الله , وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيت الله الحرام .

فدليل الشهادة : قوله تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

ومعناها : لا معبود بحق إلا الله .

(لا إله) نافياً جميع ما يعبد من دون الله (إلا الله) مثبتاً العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته ، كما أنه لا شريك له في ملكه .

وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إلا الذي فَطَرَني فإنه سَيهدين وجعَلها كلمةً باقيةً في عقبهِ لعلَهم يَرجعون ﴾ .

وقوله ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

ودليل شهادة أن محمداً رسول الله : قوله تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله : طاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، واجتناب ما عنه نهى وزجر , وألا يعبد الله إلا بما شرع .

ودليل الصلاة , والزكاة ، وتفسير التوحيد : قوله تعالى ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .

ودليل الصيام : قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

ودليل الحج : قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : ذكر أركان المرتبة الأولى , وهي مرتبة الإسلام , وذكر الأدلة على كل ركن من هذه الأركان .

ذكر المصنف أن أركان الإسلام خمسة , وذكرها مجملة ، ثم ذكر الأدلة على كون هذه الأمور من الأركان .

ودليلها الجامع حديث ابن عمر في الصحيحين قال رسول الله ﷺ : بني الإسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله , وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان .

ولما كان تركيز الشيخ وأساس تأليفه لهذه الرسالة هو توحيد العبادة , فقد فصل في الركن الأول , وهو الشهادتان , وبين معناها , ودليلها . وأما باقي الأركان فذكر دليلها فقط , ومكان التفصيل فيها كتب الفقه .

قوله [فأركان الإسلام خمسة] يقصد الإسلام بالمعنى الخاص , **ولفظ الإسلام له إطلاقان** :

١. الإسلام بالمعنى العام : وهو توحيد الله , وطاعة الرسول واتباعه في زمانه .

كما أخبر سبحانه في آيات كثيرة أن الشرائع السابقة كلها إسلام لله , قال تعالى عن نوح (فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من **المسلمين**) وقال تعالى عن إبراهيم وإسماعيل أنهما قالا (ربنا واجعلنا **مسلمين** لك) وقال تعالى في حق لوط (فما وجدنا فيها غير بيت من **المسلمين**) وقال تعالى عن فرعون أنه قال عند معاينة الهلاك (قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من **المسلمين**) أي : المتبعين لموسى .

وعليه فاليهود مسلمون في زمن موسى ، والنصارى مسلمون في زمن عيسى ، إذا كانوا متبعين لرسولهم , وأما بعد البعثة فلا إلا أن يتبعوا شريعة محمد ﷺ قال تعالى ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

وقال ﷺ : والذي نفس محمد بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة [١] يهودي , ولا نصراني , ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت إلا كان من أصحاب النار . رواه مسلم .

٢. الإسلام بالمعنى الخاص : وهو الدين الذي بعث الله به النبي ﷺ لأنه نسخ جميع الأديان , وهو المراد إذا أطلق .

قوله [فدليل الشهادة قوله تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ...﴾] .

الشهادة هي : الخبر القاطع .

وأطلق لفظ الشهادة على شهادة ألا إله إلا الله ، لأنها أعظم شهادة في الوجود ، على أعظم مشهود به ، فلا ينصرف الإطلاق إلا إليها , فإنه لا شهادة أعظم , ولا أجل , ولا أثبت من شهادته لنفسه سبحانه بالألوهية .

وجه الدلالة من الآية : أن الله شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ، وكذلك الملائكة , وأولو العلم .

قوله [ومعناها : لا معبود بحق إلا الله ، (لا إله) نافياً جميع ما يعبد من دون الله ، (إلا الله) مثبتاً العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته ، كما أنه لا شريك له في ملكه] .

هذا هو معنى شهادة التوحيد (**لا معبود بحق إلا الله**) فلا أحد يستحق العبادة إلا الله , وكل ما عُبد من دون الله فهو باطل , قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

وأما من يقدرها بقوله (لا يخلق , ولا يرزق إلا الله) فهو تقدير باطل حال الاقتصار عليه , أو (لا قادر على الاختراع إلا الله) أو من يفسرها بقوله (إخراج اليقين الفاسد من ذات الأشياء , وإدخال اليقين الصادق على ذات الله) فكل هذه المعاني باطلة حال الاقتصار عليها .

والجواب عن هذه المقولات الباطلة يأتي إن شاء الله مطولاً في شرح كتاب (كشف الشبهات) .

---

(١) المقصود أمة الدعوة , لا أمة الإجابة .

قال الشيخ في كتاب (كشف الشبهات) : فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرف جهال الكفار , بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني , والحاذق منهم يظن أن معناها : لا يخلق ولا يرزق , ولا يدبر إلا الله , فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعاني لا إله إلا الله أ.هـ

وذكر الشيخ هنا أن كلمة (لا إله إلا الله) قائمة على النفي والإثبات , نفي العبادة عن كل ما سوى الله , وإثبات العبادة لله وحده , لا شريك له في عبادته , كما أنه لا شريك له في ملكه وسائر أفعاله .

قوله [وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ .

وقوله ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾] .

يحتمل أن يكون مراد الشيخ : تفسير ما ذكره من أن كلمة (لا إله إلا الله) قائمة على النفي والإثبات , فذكر دليلين على ذلك : الآية الأولى ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ نفي ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ إثبات , والآية الثانية ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ ﴾ نفي﴿ إِلَّا اللَّهَ ﴾ إثبات .

ويحتمل أن يكون مراده : الكلام على وجوب البراءة من الشرك ، ومفاصلة أهله ، وأن ذلك من لوازم كلمة التوحيد ، كما في الباب الذي ذكره في كتاب التوحيد (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله) وذكر فيه لوازم هذه الكلمة من وجوب البراءة من كل ما يعبد من دون الله ، ووجوب إفراد الله بالتشريع والحكم ، ووجوب إفراده بالطاعة المطلقة .

قوله [ودليل شهادة أن محمداً رسول الله ، قوله تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾] .

هذا دليل شهادة أن محمداً رسول الله , والأدلة على ذلك في القرآن كثيرة , من أظهرها قوله تعالى ﴿ محمدٌ رسول الله ﴾ .

قوله [ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله : طاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، واجتناب ما عنه نهى وزجر , وأن لا يعبد الله إلا بما شرع] .

ذكر الشيخ في معنى شهادة أن محمداً رسول الله أربعة أمور :

١. مقابلة أمره بالطاعة .

٢. مقابلة نهيه بالاجتناب .

٣. مقابلة خبره بالتصديق .

٤. الاكتفاء بشرعه في التعبد لله ، وترك البدع المحدثة .

وهذه الأمور الأربعة من لوازم الشهادة في الجملة ، فمن ترك بعض أفرادها فقد أنقص من تحقيق الشهادة بقدر ما نقص .

قال ابن القيم : الإيمان يرجع إلى أصلين : طاعة الرسول فيما أمر , وتصديقه فيما أخبر .

ـــ ثم ذكر المصنف بعد ذلك دليل الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج .

مسألة : هل الذي لا يحقق ركناً من هذه الأركان يكون كافراً ؟

الجواب : تارك الشهادتين كافر بالإجماع ، وتارك الصلاة كافر على الصحيح ، بل نُقل إجماع الصحابة على ذلك , لكن العلماء اختلفوا في القدر الذي إذا تركه كفر به , والصحيح والله أعلم أنه لا يكفر إلا إذا تركها تركاً كلياً , كما اختار ذلك ابن تيمية , وشيخنا ابن عثيمين .

وأما تارك الزكاة , والصوم , والحج فالصحيح أنه لا يكفر , ولكنه ارتكب إثماً عظيماً , وذنباً كبيراً , نسأل الله السلامة والعافية .

قال ابن رجب رحمه الله : والمراد من هذا الحديث – يعني حديث ابن عمر (بني الإسلام على خمس) – أن الإسلام مبني على هذه الخمس ، فهي كالأركان والدعائم لبنيانه ، والمقصود تمثيل الإسلام ببنيان ، ودعائم البنيان هذه الخمس ، فلا يثبت البنيان بدونها ، وبقية خصال الإسلام كتتمة البنيان ، فإذا فقد منها شيء نقص البنيان وهو قائم ، لا ينقض بنقص ذلك ، بخلاف نقص هذه الدعائم ، فإن الإسلام يزول بفقدها جميعاً بغير إشكال , وكذلك يزول بفقد الشهادتين ، وأما إقام الصلاة فقد وردت أحاديث مقصودة تدل على أن من تركها فقد خرج من الإسلام.... وذهب إلى هذا القول جماعة من السلف والخلف ... وذهبت طائفة منهم إلى أن من ترك شيئاً من أركان الإسلام الخمسة عمدًا أنه كافر بذلك[١] .

وقال الشيخ حافظ حكمي في معارج القبول : فمن الأركان ما لا يتم البناء إلا به , ومنها ما لا يقوم بالكلية إلا به .

---

(١) هناك رواية عن الإمام أحمد أن من ترك أحد المباني الخمسة فهو كافر .

المرتبة الثانية : الإيمان ، وهو بضع وسبعون شعبة , أعلاها قول (لا إله إلا الله) وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان .

وأركانه ستة : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره .

والدليل على هذه الأركان الستة ، قوله تعالى ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ .

ودليل القدر قوله تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : بيان المرتبة الثانية من مراتب الدين ، وهي مرتبة الإيمان ، وبيان أركانها ، والدليل على تلك الأركان .

قوله [الإيمان , وهو بضع وسبعون شعبة[١] ......] يقصد الإيمان بالمعنى العام (الدين) **والإيمان له إطلاقان** :

١. عام : ويراد به مراتب الدين الثلاثة ، وهو المقصود بقوله ﷺ : الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان[٢].

٢. خاص : وهو الإيمان بأركان الإيمان الستة , كما في حديث عمر الآتي .

والبضع : بكسر الباء من الثلاثة إلى التسعة .

والشعبة : الطائفة من الشيء ، والقطعة منه .

---

(١) النصوص في ذكر عدد شعب الإيمان وردت بثلاثة ألفاظ :

أ. بضع وستون شعبة : وهذا ما أخرجه البخاري .

ب. بضع وسبعون شعبة : وهذا ما أخرجه مسلم وغيره .

ج. بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة : وهذا ما أخرجه مسلم وغيره .

ولذلك اختلف العلماء في ذلك على قولين , فمنهم من رجح رواية (بضع وستون) لأنه العدد الأقل ، وشُك في الأكثر ، وهذا اختيار ابن حجر ، كما في الفتح , ومنهم من رجح رواية (بضع وسبعون) لأنها زيادة من ثقة فتقبل ، وهذا اختيار النووي .

(٢) هذا نص حديث أبي هريرة في صحيح البخاري , وهو عند مسلم أيضاً بلفظ : الإيمان بضع وسبعون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان .

وفي لفظ آخر عند مسلم : الإيمان بضع وسبعون , أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان .

وكذا جاء عند أبي داود بلفظ (أفضلها قول : لا إله إلا الله) وعند النسائي بلفظ (أفضلها : لا إله إلا الله) .

ولا يوجد في الكتب الستة هذا الحديث بلفظ (أعلاها قول : لا إله إلا الله) وإنما وجد عند الترمذي , وابن ماجه بلفظ (وأرفعها قول : لا إله إلا الله) وكذا جاء في مسند أحمد .

قوله [وأركانه ستة : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره].

أورد المصنف هنا أركان الإيمان الستة , وهي :

١. **الإيمان بالله** : ويتضمن : الإيمان بوجوده ، وأنه واحد في ربوبيته وأفعاله ، وواحد في ألوهيته واستحقاقه العبادة وحده ، وأنه واحد في أسمائه وصفاته , ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، والتذلل له بأنواع العبادات الواجبة والمستحبة ، وملازمة ذكره , وتعليق القلب به في جميع الأمور .

٢. **الإيمان بالملائكة** : ويتضمن : الإيمان بوجودهم ، وأعمالهم ، وأوصافهم .

وهم عالم غيبي خلقهم الله من نور ، ووكلهم بأعمال ، وعددهم كثير لا يحصيهم إلا الله .

٣. **الإيمان بالكتب** : المراد الكتب المنزلة من الله على رسله ، ويتضمن : الإيمان بأنها منزلة من عند الله ، والإيمان بما علمنا اسمه منها ، وتصديق ما جاء فيها من أخبار ، واعتقاد أنها منسوخة كلها بالقرآن المنزل على نبينا محمد ﷺ .

٤. **الإيمان بالرسل** : ويتضمن : الإيمان بأن رسالتهم حق من عند الله ، فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع .

جاء في تفسير البغوي : قيل للحسن البصري : يا أبا سعيد أرأيت قوله (كذبت قوم نوح المرسلين) و(كذبت عاد المرسلين) و(كذبت ثمود المرسلين) وإنما أرسل إليهم رسول واحد ؟ قال : إن الآخر جاء بما جاء به الأول ، فإذا كذبوا واحداً فقد كذبوا الرسل أجمعين .

ويتضمن أيضاً : الإيمان بما علمنا من أسمائهم ، وتصديق ما صح عنهم من أخبارهم ، والعمل بشريعة محمد ﷺ واعتقاد أنها ناسخة لجميع الرسالات .

٥. **الإيمان باليوم الآخر** : وهو يوم القيامة الذي لا يوم بعده ، ويتضمن : الإيمان بحصوله ، والإيمان بما يحصل فيه من أهوال وأمور عظيمة ، وما يحصل فيه من أحداث .

ومن الإيمان به : الإيمان بالحوض , والحشر , والحساب , والميزان , وغير ذلك مما هو معروف .

ومن الإيمان به : الإيمان بالجنة والنار وما فيهما .

ويرى ابن تيمية أن اليوم الآخر يبدأ من موت الإنسان ، فيدخل فيه ما يحصل في سكرات الموت ، وما يحصل في القبر من نعيم وعذاب .

وبعضهم يدخل في اليوم الآخر : أشراط الساعة الكبرى .

٦. **الإيمان بالقدر خيره وشره** : بأن يعلم ويعتقد أن كل شيء يحدث في هذا الكون قد سبق به قدر الله , وأن الله عالم بهذه الأحوال قبل أن يخلق الخلق ، وأنه كتب ذلك كله , وشاءه , وخلقه .

فالإيمان بالقدر يتضمن أربعة أمور ، وهي :

أ. **العلم** : وهو الإيمان بأن الله عالم بكل شيء جملة وتفصيلاً ، أزلاً وأبداً ، سواءً ما يتعلق بأفعاله أو أفعال عباده .

ب. **الكتابة** : وهي الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ .

ودليل المرتبتين جميعاً : قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾.

ج. **المشيئة** : وهي الإيمان بأن كل ما يقع في الكون بمشيئة الله وإرادته وقدره .

د. **الخلق** : وهو الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله تعالى بذواتها وصفاتها وحركاتها , قال تعالى ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ومن ذلك أفعال العباد ، قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

وهذا كلام مختصر عن أركان الإيمان الستة , والتفصيل أكثر في شرح (الواسطية) إن شاء الله تعالى .

وأركان الإيمان ليست كأركان الإسلام فيها أركان أساس ، وأركان تمام , بل إذا تخلف ركن واحد منها كان صاحبه كافراً كفراً أكبر , والعياذ بالله .

المرتبة الثالثة : الإحسان ركن واحد , وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

والدليل قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُون ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : بيان المرتبة الثالثة من مراتب الدين ، وهي مرتبة الإحسان ، وذكر الدليل عليه .

الإحسان لغة : مشتق من الحُسن . ويطلق على الإتقان والإجادة , لأن من أتقن وأجاد فقد أحسن (١) .

والإحسان هو مقام المراقبة ، مراقبة العابد لربه جلا وعلا أثناء عبادته , وفي أحواله كلها .

وتعظم مرتبة الإحسان بعظم مراقبة الله ، وتضعف بضعف ذلك .

يقول ابن القيم : فحظ العبد من القرب من الله على قدر حظه من مقام الإحسان , وبحسبه تتفاوت الصلاة حتى يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض , وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد .

ويقول ابن رجب في فتح الباري : فهذه أعلى درجات الإيمان ومراتبه , ويتفاوت المؤمنون والمحسنون في تحقيق هذا المقام تفاوتاً كثيراً بحسب تفاوتهم في قوة الإيمان والإحسان .

وقال النووي في شرح مسلم : (الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه , فإن لم تكن تراه فإنه يراك) هذا من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ لأنا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع , والخشوع , وحسن السمت , واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به , فقال ﷺ اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان , فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه , فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه , وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد , فينبغي أن يعمل بمقتضاه , فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة , ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع , والخضوع , وغير ذلك .

---

(١) قال ابن حجر : الإحسان هو مصدر , تقول : أحسن يحسن إحساناً , ويتعدى بنفسه وبغيره , تقول : أحسنت كذا إذا أتقنته , وأحسنت إلى فلان إذا أوصلت إليه النفع , والأول هو المراد , لأن المقصود إتقان العبادة .

وينبه هنا أن مقام الإحسان هو أعلى مراتب الدين , خلافاً لما عليه طوائف من المتصوفة من ذكر مراتب هي أقرب للبدعة منها إلى القرب من الله .

يقول ابن القيم : مقام الإحسان , وهو أن تعبد الله كأنك تراه , ولا مشهد للعبد في الدنيا أعلى من هذا , وعند كثير من الصوفية أن فوقه مشهداً أعلى منه , وهو شهود الحق مع غيبته عن كل ما سواه ، وهو مقام الفناء .

ويقول أيضاً : ولو كان فوق مقام الإحسان مقام آخر لذكره النبي ﷺ لجبريل , ولسأله جبريل عنه , فإنه جمع مقامات الدين كلها في الإسلام , والإيمان , والإحسان .

ويقول أيضاً : ولا تعتقد أن للسالك وراء مقام الإحسان شيئاً أعلى منه .

وهذه المرتبة العظيمة لا يوصل إليها إلا بالمجاهدة , ودوام الذكر , يقول ابن القيم رحمه الله : ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان , كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت .

مسألة : يرى جمع من أهل العلم أن تعريف الرسول ﷺ للإحسان تضمن مرتبتين :

١. مرتبة الاستحضار (المشاهدة) فتشعر في عبادتك أنك بين يدي الله , كأنك تشاهده .

٢. مرتبة الاطلاع (المراقبة) فتستحضر أن الله مطلع عليك ويراقبك .

فالمرتبة الأولى (المشاهدة) تشعر أنك ترى الله , والمرتبة الثانية (المراقبة) تستحضر أن الله يراك .

ويجعلون الأولى : مرتبة طلب وشوق ، والثانية : مرتبة هرب وخوف .

ولذا يجعلون المرتبة الأولى أفضل من المرتبة الثانية .

قال ابن رجب في فتح الباري : فهذان مقامان : أحدهما : مقام المراقبة ، وهو أن يستحضر العبد قرب الله منه , واطلاعه عليه , فيتخايل أنه لا يزال بين يدي الله , فيراقبه في حركاته وسكناته , وسره وعلانيته ، فهذا مقام المراقبين المخلصين ، وهو أدنى مقام الإحسان .

والثاني : أن يشهد العبد بقلبه ذلك شهادة , فيصير كأنه يرى الله ويشاهده ، وهذا نهاية مقام الإحسان ، وهو مقام العارفين .

قال بعض السلف : من عمل لله على المشاهدة فهو عارف ، ومن عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص .

وقال ابن حجر : وإحسان العبادة : الإخلاص فيها , والخشوع , وفراغ البال حال التلبس بها , ومراقبة المعبود , وأشار في الجواب إلى حالتين أرفعهما : أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه بعينه , وهو قوله (كأنك تراه) أي : وهو يراك , والثانية : أن يستحضر أن الحق مطلع عليه , يرى كل ما يعمل , وهو قوله (فإنه يراك) .

وقال شيخنا ابن عثيمين : فها هنا مرتبتان : المرتبة الأولى : أن تعبد الله كأنك تراه ، وهذه مرتبة الطلب .

والثانية : أن تعبد الله وأنت تعلم أنه يراك ، وهذه مرتبة الهرب ، وكلتاهما مرتبتان عظيمتان ، لكن الأولى أكمل وأفضل أ.هـ

ولكن الناظر في تعريف الرسول ﷺ للإحسان يلاحظ أنه مرتبة واحدة ، وهي مرتبة المراقبة لله عز وجل ، بأن يعبد الله كأنه يراه , وهذا يورث الخضوع , والخشوع , والحضور , وإتقان العبادة .

وأما قوله ﷺ (فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك) فهذا كالوسيلة لتحقيق تلك المرتبة , والله أعلم , وانظر كلام النووي السابق , وقد نقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري عن النووي أنه قال : فتقدير الحديث : فإن لم تكن تراه فاستمر على إحسان العبادة فإنه يراك .

والفرق بين كوننا نجعل للإحسان مرتبتين , أو مرتبة واحدة , أن يقال : من جعل الإحسان مرتبتين يقول : من جاء بإحدى المرتبتين فهو محسن , كما يصرح بذلك من قال بذلك , ويقولون : انتقل من المرتبة الدنيا في الإحسان إلى المرتبة العظمى فيه .

ومن يجعله مرتبة واحدة يقول : الإحسان هو : أن تعبد الله كأنك تراه . فإن وصلت لذلك فأنت محسن وإلا فلا , والوسيلة لهذا المقام أن تستشعر في عبادتك أن الله مطلع عليك ويراك فإن داومت على ذلك ربما حصل لك مقام الإحسان بأن تعبد الله كأنك تراه , والله تعالى أعلم .

والدليل من السنة : حديث جبريل المشهور عن عمر رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد ألا إله إلا الله , وأن محمداً رسول الله , وتقيم الصلاة , وتؤتي الزكاة , وتصوم رمضان , وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً .

قال : صدقت . فعجبنا له يسأله , ويصدقه .

قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره .

قال : صدقت .

قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال : فأخبرني عن الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

قال : فأخبرني عن أماراتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة , العراة , العالة , رِعاء الشاء يتطاولون في البنيان .

قال : ثم انطلق فلبثت ملياً , ثم قال لي : يا عمر : أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . رواه مسلم

ذكر المصنف حديث جبريل الطويل دليلاً على مراتب الدين الثلاثة .

قال ابن رجب : هو حديث عظيم جداً ، يشمل على شرح الدين كله ، ولهذا قال ﷺ في آخره : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم.

وقال ابن دقيق العيد : هذا حديث عظيم , اشتمل على جميع وظائف الأعمال الظاهرة والباطنة , وعلوم الشريعة كلها راجعة إليه , ومتشعبة منه , لما تضمنه من جمعه علم السنة , فهو كالأم للسنة .

والكلام عن هذا الحديث العظيم سبق عند شرح الأربعين النووية .

وخلاصة الأصل الثاني : بيان حقيقة الدين الذي أمر الله به عباده , وهو إفراد الله بالعبادة , والانقياد التام لما جاءت به الرسل , وموالاة أهل الإيمان , ومعادة أهل الكفر , وبيان مراتب دين الإسلام الثلاثة , وهي : الإسلام , والإيمان , والإحسان .

وأعلى هذه المراتب الإحسان , ودونه الإيمان وأركانه ستة , ودونه الإسلام وأركانه خمسة .

الأصل الثالث : معرفة نبيكم محمد ﷺ ، وهو : محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، وهاشم من قريش ، وقريش من العرب ، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل , عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

وله من العمر ثلاث وستون سنة ، منها : أربعون قبل النبوة ، وثلاث وعشرون نبياً رسولاً .

نبئ بـ(اقْرَأْ) , وأرسل بـ(الْمُدَّثِّرُ) .

وبلده مكة ، وهاجر إلى المدينة .

بعثه الله بالنذارة عن الشرك ويدعو إلى التوحيد ، والدليل قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ .

ومعنى ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ ينذر عن الشرك , ويدعو إلى التوحيد .

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي : عظمه بالتوحيد .

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أي : طهر أعمالك عن الشرك .

﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ الرجز : الأصنام ، وهجرها : تركها ، والبراءة منها وأهلها .

أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد ، وبعد العشر عرج به إلى السماء ، وفرضت عليه الصلوات الخمس ، وصلى في مكة ثلاث سنين ، وبعدها أمر بالهجرة إلى المدينة .

خلاصة هذا المقطع : بيان الأصل الثالث وهو معرفة النبي ﷺ وذكْرُ طرف من أخباره .

يقول ابن القيم في زاد المعاد : اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول(١) وما جاء به , وتصديقه فيما أخبر , وطاعته فيما أمر , فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح , لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل .

وخلاصة ما ذكره المصنف هنا هو : معرفة بعض من سيرة النبي ﷺ وهي بحسب ما ذكره تتضمن : معرفة اسمه , ونسبه , وعمره , ومعرفة بأي سورة نُبأ , وبأي سورة أُرسل , ومعرفة بلده , ومهاجره , ومعرفة موضوع رسالته , ومعرفة سيرته إجمالاً بعد أن كُلّف بالرسالة .

---

(١) ويقصد رحمه الله عموم الرسل .

قوله [وهو : محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم] .

اكتفى المصنف بهذا القدر , ثم انتقل إلى نسبه .

واسمه الكامل : محمد , بن عبدالله , بن عبد المطلب , بن هاشم , بن عبد مناف , بن قصي , بن كلاب , بن مرة , بن كعب , بن لؤي , بن غالب , بن فهر , بن مالك , بن النضر , بن كنانة , بن خزيمة , بن مدركة , بن إلياس , بن مضر , بن نزار , بن معد , بن عدنان .

أخرج هذا القدر من نسبه البخاري ، وهو المجمع عليه بين العلماء ، أما ما بعده فمختلف فيه .

يقول ابن القيم : إلى هاهنا معلوم الصحة , متفق عليه بين النسابين , ولا خلاف فيه البتة , وما فوق عدنان مختلف فيه , ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل .

وأشهر أسماءه ﷺ : محمد , وأحمد , وأشهرهما محمد , وأما أحمد فلم يَتسم به ﷺ وإنما وجد في كتب الأنبياء السالفة(١) .

قال ابن حجر : وأشهرهما محمد , وقد تكرر في القرآن , وأما أحمد فذكر فيه حكاية عن قول عيسى عليه السلام .

وقال القاضي عياض : كان رسول الله ﷺ أحمد قبل أن يكون محمداً ، كما وقع في الوجود ، لأن تسميته أحمد وقعت في الكتب السالفة ، وتسميته محمداً وقعت في القرآن العظيم , وذلك لأنه حمد ربه قبل أن يحمده الناس ، وكذلك في الآخرة يحمد ربه فيشفعه فيحمده الناس .

ومعنى محمد : أي كثير الخصال التي يستحق عليها الحمد ، فتسميته بذلك من قبيل التفاؤل .

قال ابن القيم : فهو لكثرة ما فيه من الصفات (محمد) ولشرفها وفضلها على صفات غيره (أحمد) .

وله ﷺ أسماء أُخَرُ , وقد بوب البخاري على ذلك بقوله : باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ .

وذكر حديث جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب(٢) . متفق عليه

قال ابن حجر : والذي يظهر أنه أراد أن لي خمسة أسماء أختص بها لم يسم بها أحد قبلي ، أو معظمة ، أو مشهورة في الأمم الماضية ، لا أنه أراد الحصر فيها .

قال القاضي عياض : حمى الله هذه الأسماء أن يسمى بها أحد قبله ، وإنما تسمى بعض العرب محمداً قرب ميلاده لما سمعوا من الكهان , والأحبار أن نبياً سيبعث في ذلك الزمان يسمى محمداً , فرجوا أن يكونوا هم , فسموا أبناءهم بذلك ، وهم ستة لا سابع لهم .

قال ابن حجر : وقد جمعت أسماء من تسمى بذلك في جزء مفرد , فبلغوا نحو العشرين , لكن مع تكرر في بعضهم , ووهم في بعض , فيتلخص منهم خمسة عشر نفساً أ.هـ ثم عدهم .

---

(١) قال العراقي : ولم يتسم بأحمد قبله ﷺ أحد , ولا في زمنه , ولا في زمن أصحابه ، حماية لهذا الاسم الذي بشر به الأنبياء ، وأول من سُمي أحمد في الإسلام أحمد بن عمر بن تميم , والد الخليل بن أحمد العروضي , قاله أبو بكر بن أبي خيثمة , وأبو العباس المبرد .

(٢) ومعنى العاقب : الذي ليس بعده نبي , فهو آخر الرسل , أُرسل في عقبهم , يعني بعدهم .

قال أبو عبيد : سألت سفيان بن عيينة عن العاقب فقال لي : آخر الأنبياء , وكذلك كل شيء خلف بعد شيء فهو عاقب .

وقال ابن حجر أيضاً : قال بعضهم : أسماء النبي ﷺ عدد أسماء الله الحسنى تسعة وتسعون اسماً , وقال : ولو بحث عنها باحث لبلغت ثلاثمائة اسم . قال ابن حجر معقباً : وغالب الأسماء التي ذكرها وصف بها النبي ﷺ ولم يَرد الكثير منها على سبيل التسمية .

وقال : ونقل ابن العربي في شرح الترمذي عن بعض الصوفية أن لله ألف اسم ، ولرسوله ألف اسم .

قال ابن القيم : وأما إن جعل له من كل وصف من أوصافه اسم تجاوزت أسماؤه المائتين ، كالصادق ، والمصدوق ، والرءوف , الرحيم ، إلى أمثال ذلك , وفي هذا قال من قال من الناس : إن لله ألف اسم ، وللنبي ﷺ ألف اسم ، قاله أبو الخطاب بن دحية ، ومقصوده الأوصاف .

وقد عقد ابن القيم فصلاً في شرح معاني أسمائه ﷺ في كتابه (زاد المعاد) .

قوله [وهاشم من قريش ، وقريش من العرب ، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام] .

هذا هو نسب نبينا ﷺ وشاء الله تعالى أن يكون من أعلى وأطهر أهل الأرض نسباً , وأشرفهم قوماً , وقبيلة , وفخذاً .

وهكذا الأنبياء تبعث في أحساب قومها , كما قال هرقل : وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها . متفق عليه

وعند البخاري أيضاً : فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .

قال ابن حجر في الفتح : الظاهر أن إخبار هرقل بذلك بالجزم كان عن العلم المقرر عنده في الكتب السالفة .

وفي هذا يقول ﷺ : إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة , واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم . رواه مسلم

وبنو هاشم من أفضل قبائل العرب نسباً ، وقد بوب البخاري : باب : مناقب قريش . وذكر عدة أحاديث تدل على فضلهم .

وذكر الحافظ ابن حجر عدة أقوال في تسمية قريش ، ومن هو أول من تسمى بذلك . يُنظر الفتح [٦ / ٦١٧] .

وقريش من العرب المستعربة ، **والعرب عند أهل النسب قسمان :**

١. عرب عاربة : وهم أصل العرب , ويرجعون إلى قحطان ، وهؤلاء سكنوا اليمن ثم تفرقوا .

٢. عرب مستعربة : وهؤلاء يرجعون إلى عدنان ، إلى إسماعيل عليه السلام ، وهؤلاء لم يكونوا أصلاً من العرب ، لأن إسماعيل عليه السلام لم يكن من العرب أصلاً , ولكن كما في القصة المشهورة لما تركه إبراهيم عليه السلام عند البيت نزلت بهم قبيلة جرهم , أحد قبائل العرب , فتعلم منهم العربية , ونبغ فيهم .

وعليه فكل من كان قبل إسماعيل من العرب ، فهو من العرب العاربة , وكل من كان بعد إسماعيل من نسله فهو من العرب المستعربة(١).

وأخواله ﷺ من بني زهرة , فأمه : آمنة بنت وهب من بني زهرة .

قوله [وله من العمر ثلاث وستون سنة ، منها : أربعون قبل النبوة ، وثلاث وعشرون نبياً رسولاً] .

أجمع أهل العلم على أن النبي ﷺ توفي وله من العمر ثلاث وستون سنة ، وهذا ما ذكره ابن عباس وعائشة , كما في الصحيحين , وذكره أنس أيضاً , كما عند مسلم .

قال ابن حجر في الفتح : ولم يختلفوا أنه استكمل سن النبي ﷺ فمات وهو ابن ثلاث وستين , والله أعلم .

وعمره ﷺ على حالين :

أ. قبل النبوة وهو : أربعون سنة .

قال ابن القيم : بعثه الله على رأس أربعين , وهي سن الكمال , قيل : ولها تُبعث الرسل .

ب. بعد أن كان نبياً ورسولاً وهو : ثلاث وعشرون سنة .

جاء في البخاري عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة , فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه , ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين , ومات وهو ابن ثلاث وستين .

وعن أنس قال : أنزل عليه وهو ابن أربعين . رواه البخاري

وأما قول أنس كما عند البخاري : بعثه الله على رأس أربعين سنة , فأقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين .

فيحمل على إلغاء الكسر , وهو صنيع مشهور في لغة العرب .

---

(١) قال ابن تيمية في الجواب الصحيح : والناس متفقون على أن عدنان ولد إسماعيل , وربيعة , ومضر , وأما قحطان فقال بعضهم : هم أيضاً من ولد إسماعيل , والصحيح أنهم كانوا موجودين قبل إبراهيم بأرض اليمن , ومنهم جرهم الذين سكنوا مكة , ومنهم تعلم إسماعيل العربية .

وقال في مجموع الفتاوى : وأكثر الناس على أنهم من ولد هود , ليسوا من ولد إبراهيم , وقيل : إنهم من ولد إسماعيل لحديث أسلم لما قال : ارموا فإن أباكم كان رامياً , وأسلم من خزاعة , وخزاعة من ولد إبراهيم .

وقال ابن كثير في قصص الأنبياء : ويقال : إن هوداً عليه السلام أول من تكلم بالعربية , وزعم وهب بن منبه أن أباه أول من تكلم بها , وقال غيره : أول من تكلم بها نوح , وقيل : آدم , وهو الأشبه , وقيل غير ذلك .

وقال أيضاً : ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام العرب العاربة , وهم قبائل كثيرة , منهم عاد , وثمود , وجرهم .... وقحطان ....وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل , وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم العربية الفصيحة البليغة , وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم .

وعمره ﷺ بعد أن بُعث مقسم على بلدتين :

أ. مكث في مكة ثلاث عشرة سنة : منها ثلاث سنوات في الدعوة السرية ، وعشر في الدعوة الجهرية والأذى .

ب. مكث في المدينة عشر سنين .

جاء في البخاري عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة , فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه , ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين , ومات وهو ابن ثلاث وستين .

قال النووي : واتفقوا أنه ﷺ أقام بالمدينة بعد الهجرة عشر سنين .

قوله [نبئ بـ(اقْرَأْ) , وأرسل بـ(الْمُدَّثِّرُ)] .

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة – وعند البخاري في رواية أخرى : الصالحة – في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء , فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ....متفق عليه[(١)]

فأول ما نزل على النبي ﷺ من القرآن فواتح سورة العلق (اقرأ باسم ربك الذي خلق....) وبها صار نبياً ﷺ وكل ما نزل من القرآن تلك الفترة لم يكن فيه أمر بالتبليغ .

ثم انقطع الوحي عن النبي ﷺ فترة , ثم أنزل عليه فواتح سورة المدثر , وبها صار رسولاً , وأمر بتبليغ الدين .

جاء في الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : جاورت في حراء , فلما قضيت جواري هبطت ، فاستبطنت الوادي , فنوديت فنظرت أمامي , وخلفي ، وعن يميني , وعن شمالي ، فإذا هو جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فأتيت خديجة فقلت : دثروني ، وصبوا علي ماء بارداً ، وأنزل علي (يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر) .

ولفظ مسلم : جاورت بحراء شهراً ، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي ، فنوديت فنظرت أمامي , وخلفي ، وعن يميني , وعن شمالي ، فلم أر أحداً , ثم نوديت فنظرت فلم أر أحداً ، ثم نوديت فرفعت رأسي ، فإذا هو على العرش في الهواء – يعني جبريل عليه السلام – فأخذتني رجفة شديدة ، فأتيت خديجة فقلت : دثروني ، فدثروني ، فصبوا علي ماء ، فأنزل الله عز وجل (يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر) .

قال ابن تيمية : ونبأه الله على رأس أربعين سنة ، فأول ما أنزل الله عليه (اقرأ باسم ربك) فكان نبياً ، ثم أنزل الله عليه (يا أيها المدثر) فكان رسولاً .

وقال ابن القيم : أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذي خلق ، وذلك أول نبوته ، فأمره أن يقرأ في نفسه ، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ ، ثم أنزل عليه (يا أيها المدثر * قم فأنذر) فنبأه بقوله (اقْرَأْ) , وأرسله بـ(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين , ثم أنذر قومه , ثم أنذر من حولهم من العرب , ثم أنذر العرب قاطبة , ثم أنذر العالمين , فأقام بضع عشرة سنة

---

(١) قال ابن القيم : وأول ما بدئ به رسول الله ﷺ من أمر النبوة الرؤيا ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح , قيل : وكان ذلك ستة أشهر ، ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة ، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، والله أعلم .

بعد نبوته , ينذر بالدعوة بغير قتال , ولا جزية , ويؤمر بالكف , والصبر , والصفح .... ثم أذن له في الهجرة , وأذن له في القتال , ثم أمره أن يقاتل من قاتله , ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله , ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله .

قوله [وبلده مكة ، وهاجر إلى المدينة] .

ولد ﷺ في مكة ، وفيها أهله وعشيرته ، وكان يحبها ﷺ .

قال ابن القيم : ولا خلاف في أنه ولد في جوف مكة , وأن مولده كان عام الفيل .

وأما عن مهاجره : فقد هاجر ﷺ إلى المدينة , وعاش فيها بقية عمره , ومات ودفن فيها , وتباركت المدينة بدخوله .

قول [بعثه الله بالنذارة عن الشرك ويدعو إلى التوحيد ، والدليل قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ .

ومعنى ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ ينذر عن الشرك , ويدعو إلى التوحيد ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي : عظمه بالتوحيد ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أي : طهر أعمالك عن الشرك ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ الرجز : الأصنام ، وهجرها : تركها وأهلها ، والبراءة منها , وأهلها] .

هذا هو أصل دعوة الرسل جميعاً : الدعوة إلى التوحيد , والتحذير من الشرك , قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : وما أرسلنا يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم إلا نوحي إليه أنه لا معبود في السماوات والأرض تصلح العبادة له سواي ﴿ فاعبدون ﴾ يقول : فأخلصوا لي العبادة ، وأفردوا لي الألوهية .

وقوله [وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . أي : عظمه بالتوحيد] .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : وربك يا محمد فعظم بعبادته ، والرغبة إليه في حاجاتك دون غيره من الآلهة والأنداد .

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في موضع : يعني عظمه بالإخلاص , وليس المراد تكبير الأذان أو غيره , فإنه لم يشرع إلا في المدينة .

قوله [وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . أي : طهر أعمالك من الرجس] .

هذا أحد التفاسير المنقولة عن السلف في معنى الآية .

قال قتادة : قوله (وثيابك فطهر) طهرها من المعاصي ، فكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يف بعهد أنه دنس الثياب ، وإذا وفى وأصلح قالوا : مطهر الثياب أ.هـ

وهذا أنسب ، لأنه يناسب ما قبله وما بعده , فإن ما قبله فيه الإنذار والتعظيم ، وما بعده فيه أمر بترك الرجز , وهجر الأصنام , والبراءة منها .

وقد جاء في الصحيحين : وأنزل عليَّ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ قبل أن تفرض الصلاة .

والقول الثاني : طهر ثيابك من النجاسة .

قال ابن القيم : وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هاهنا القلب ، والمراد بالطهارة : إصلاح الأعمال , والأخلاق .

وقال ابن باز : أي : طهر أعمالك من الشرك ، لأن تطهير الملابس غير مراد في هذه الآية ، لأن الصلاة لم تفرض في ذلك الوقت ، فالمراد هنا الأعمال كما في قوله تعالى ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ فالعمل يسمى لباساً .

وقوله [وَالرُّجْزَ : الأصنام] .

جاء هذا التفسير في الصحيحين عن أبي سلمة راوي الحديث , حيث قال : وهي الأوثان التي كان أهل الجاهلية يعبدون .

وقوله [وهجرها : تركها وأهلها ، والبراءة منها , وأهلها] .

من لوازم هجر الأصنام أن تترك فلا تعبد , وأن يكفر بها , وأن يهجر أهلها ويتبرأ منهم .

قوله [أخذ على هذا عشر سنين , يدعو إلى التوحيد , وبعد العشر عرج به إلى السماء , وفرضت عليه الصلوات الخمس , وصلى في مكة ثلاث سنين , وبعدها أمر بالهجرة إلى المدينة] .

ظل ﷺ بعد الرسالة في مكة ثلاث عشرة سنة ، منها عشر سنوات يدعو إلى التوحيد .

وفي تلك العشر سنوات لم تفرض الفرائض , لا الصلاة (١) ، ولا الصيام , ولا غيرها , ولم تحرم الخمر .

ثم بعد ذلك أسري به إلى بيت المقدس ، ثم عرج به إلى السماء , وفرضت عليه الصلوات الخمس , وصلى في مكة ثلاث سنوات , ثم هاجر إلى المدينة , وفرضت عليه بقية الفرائض , كما يأتي قريباً من كلام المصنف إن شاء الله .

مسألة : كان فرض الصلاة في السنة العاشرة بمكة , وصلى في مكة ثلاث سنوات ، وأول ما فرضت الصلاة خمسون صلاة ، ثم خُففت إلى خمس صلوات بأجر خمسين صلاة(٢) ، كما في الصحيحين (هي خمس وهي خمسون ، لا يبدل القول لدي) .

وأول ما فرضت الصلاة ركعتان ، قالت عائشة : الصلاة أول ما فرضت ركعتان ، فأقرت صلاة السفر ، وأتمت صلاة الحضر . متفق عليه

وجاء عند ابن حبان بلفظ : فرضت صلاة السفر والحضر ركعتين , فلما أقام رسول الله ﷺ بالمدينة زيد في صلاة الحضر ركعتان , وتركت صلاة الفجر لطول القراءة , وصلاة المغرب لأنها وتر النهار .

قال ابن تيمية : وقد روي أن الصلاة أول ما فرضت كانت ركعتين بالغداة , وركعتين بالعشي , ثم فرضت الخمس ليلة المعراج , وكانت ركعتين ركعتين , فلما هاجر أقرت صلاة السفر , وزيد في صلاة الحضر , وكانت الصلاة تكمل شيئاً بعد شيء , فكانوا أولاً يتكلمون في الصلاة , ولم يكن فيها تشهد , ثم أمروا بالتشهد , وحرم عليهم الكلام , وكذلك لم يكن بمكة لهم أذان , وإنما شرع الأذان بالمدينة بعد الهجرة , وكذلك صلاة الجمعة , والعيد , والكسوف , والاستسقاء , وقيام رمضان , وغير ذلك إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة .

---

(١) وقال بعض العلماء : بل كانت هناك صلاتان مفروضتان ، إحداهما أول النهار ، والثانية أول الليل ، كما في سورة طه ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ ، وكذلك في سورة ق ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ ، وكانت ركعتان , كما هو قول أكثر أهل العلم .

قال ابن تيمية : وقد روي أن الصلاة أول ما فرضت كانت ركعتين بالغداة , وركعتين بالعشي .

(٢) لكنه لم يُعمل بها , بل خُففت قبل أن ينزل بها ﷺ إلى الأرض , كما في حديث الإسراء في الصحيحين , وهذا من باب النسخ قبل الفعل .

قوله [وبعد العشر عرج به إلى السماء] .

كأن المصنف يرجح أن زمن الإسراء والمعراج كان قبل الهجرة بثلاث سنين .

قال ابن رجب الحنبلي في فتح الباري : وهو أشهر أ.هـ

وقد اختلف أهل العلم في ذلك اختلافاً كثيراً , سواء في السنة أو في الشهر , وبالغ ابن حزم فادعى الإجماع على أن ذلك كان قبل الهجرة بسنة , وبه جزم النووي , وقد رد ذلك ابن حجر في فتح الباري , وذكر عشرة أقوال في ذلك .

وفي هذا دلالة على بدعية الاحتفال بهذه المناسبة , لأن وقتها لم يكن مجزوماً به , ولو كان الاحتفال مشروعاً لسبقنا إليه من هو أحرص منا على الخير , كيف وقد اختلفوا في تعيين هذه الليلة .

هذا ما ذكره المصنف من سيرة النبي ﷺ وهذا القدر لا يحسن الجهل به من مسلم .

يقول ابن القيم في زاد المعاد : وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه , وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه , وسيرته , وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به , ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه , والناس في هذا بين مستقل , ومستكثر , ومحروم , والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء , والله ذو الفضل العظيم .

وقد تكلم ابن القيم عن سيرة النبي ﷺ في كتابه الماتع (زاد المعاد في هدي خير العباد) كلاماً طويلاً ماتعاً يحسن الرجوع إليه .

وإتماماً للفائدة نذكر ما قاله باختصار مما يختص بسيرته قبل النبوة , مما لا ينبغي لمسلم أن يجهل هذا القدر من سيرته ﷺ .

يقول رحمه الله : لا خلاف أنه ولد ﷺ بجوف مكة , وأن **مولده كان عام الفيل**(١) ..... واختلف في وفاة أبيه عبدالله , هل توفي ورسول الله ﷺ حمل , أو توفي بعد ولادته , على قولين , أصحهما أنه توفي ورسول الله ﷺ **حمل** , والثاني أنه توفي بعد ولادته بسبعة أشهر , ولا خلاف أن أمه ماتت بين مكة والمدينة (بالأبواء) منصرفها من المدينة من زيارة أخواله , ولم يستكمل إذ ذاك **سبع سنين** , وكفله جده عبد المطلب , وتوفي ولرسول الله ﷺ نحو **ثمان سنين** , وقيل : ست , وقيل : عشر , ثم كفله عمه أبو طالب , واستمرت كفالته له , فلما بلغ **ثنتي عشرة سنة** خرج به عمه إلى الشام , وقيل : كانت سِنُهُ تسع سنين .....فلما بلغ **خمساً وعشرين** سنة خرج إلى الشام في تجارة فوصل إلى بصرى(٢) ثم رجع , فتزوج عقب رجوعه خديجة بنت خويلد , وقيل : تزوجها وله ثلاثون سنة , وقيل : إحدى وعشرون , وسنها أربعون , وهي أول امرأة تزوجها , وأول امرأة ماتت من نسائه , ولم ينكح عليها غيرها ......فلما كمل له **أربعون** أشرق عليه نور النبوة ....ولا خلاف أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين(٣) , واختلف في شهر المبعث , فقيل : لثمان مضين من ربيع الأول....وهو قول الأكثرين , وقيل : بل كان ذلك في رمضان أ.هـ

وأما **وفاته** ﷺ فكانت يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام عشر من الهجرة , على المشهور .

قال ابن كثير : لا خلاف من أنه ﷺ توفي يوم الاثنين , والمشهور أنه في الثاني عشر من ربيع الأول .

وعليه فالذين يحتفلون بمولده ﷺ يقال لهم : إن كان هذا يوم ولادته على المشهور , فهو يوم وفاته على المشهور , فبأيهما تحتفلون ؟!.

---

(١) ولد ﷺ بمكة يتيم الأب , يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول في العام المشهور بعام الفيل , وهذا هو المشهور في يوم ولادته , وقد روى ذلك ابن إسحاق بدون إسناد , كما في سيرة ابن هشام ، فهو إذن ضعيف .

ولذلك يرى الباحث محمود باشا الفلكي أنه ولد في التاسع من ربيع الأول . [السيرة النبوية _ لمهدي أحمد ص١٠٩.] الطبعة الأولى , والله أعلم .

(٢) جنوب شرق دمشق , تبعد عنها ١٤٠كم .

(٣) جاء عند مسلم : سئل النبي ﷺ عن صيام يوم الاثنين ؟ فقال : ذلك يوم ولدت فيه , وأنزل علي فيه .

والهجرة : الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام .

والهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام ، وهي باقية إلى أن تقوم الساعة .

والدليل قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ .

قال البغوي رحمه الله : سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين بمكة لم يهاجروا ، ناداهم الله باسم الإيمان .

والدليل على الهجرة من السنة قوله ﷺ : لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة , ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها(١).

خلاصة هذا المقطع : تعريف الهجرة ، وبيان حكمها ، والدليل عليها .

لما وصل المصنف في كلامه عن سيرة النبي ﷺ إلى أنه أمر بالهجرة إلى المدينة ، استطرد فتكلم عن الهجرة ، فذكر تعريفها ، وحكمها – وهو الوجوب – ، وبقاء حكمها إلى قيام الساعة , وذكر ثلاث أدلة عليها :

الدليل الأول على وجوبها ، وذلك أن الله أخبر عن الذين تركوا الهجرة بأن مأواهم جهنم .

والدليل الثاني على أن تاركها لا يكفر ، كما قد يفهم من الآية الأولى ، ولهذا أردفها بكلام البغوي ليخبر أن هذا الدخول للنار ليس دخولاً أبدياً , فترك الهجرة ليس كفراً ، لأنه خاطب به المسلمين(٢) .

والدليل الثالث على بقاء حكمها إلى يوم القيامة .

---

(١) أخرجه أبو داود , والنسائي , وصححه الألباني في الإرواء .

(٢) وهذا الاستنباط من الآية جيد وحسن , وليت المصنف لم ينسبه للإمام البغوي , لأن الموجود في تفسير البغوي عند هذه الآية إنما هو نقل الأقوال في سبب نزول الآية , حيث قال : قال مقاتل , والكلبي : نزلت في ضعفاء مسلمي مكة ، يقول : إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها إلى أرض المدينة ، (إن أرضي) يعني المدينة واسعة آمنة .

قال مجاهد : (إن أرضي) المدينة واسعة فهاجروا وجاهدوا فيها . وقال سعيد بن جبير : إذا عمل في أرض بالمعاصي فاخرجوا منها فإن أرضي واسعة .

وقال عطاء : إذا أمرتم بالمعاصي فاهربوا , فإن أرضي واسعة .

وكذلك يجب على كل من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له العبادة .

وقيل : نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة بمكة ، وقالوا : نخشى إن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة ، فأنزل الله هذه الآية , ولم يعذرهم بترك الخروج .

وقال مطرف بن عبد الله : (أرضي واسعة) أي : رزقي لكم واسع فاخرجوا أ.هـ

ولم يختص البغوي بهذه النقول , بل قد نقلها غير واحد من المفسرين , قال ابن الجوزي في تفسيره (زاد المسير) في سبب نزول الآية : وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه خطاب لمن آمن من أهل مكة ، قيل لهم : (إن أرضي) يعني المدينة (واسعة) فلا تجاوروا الظلمة في أرض مكة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس , وكذلك قال مقاتل : نزلت في ضعفاء مسلمي مكة ، أي : إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان، فارض المدينة واسعة .

والثاني : أن المعنى : إذا عُمل بالمعاصي في أرض فاخرجوا منها ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال عطاء .

والثالث: إن رزقي لكم واسع ، قاله مطرف بن عبد الله .

والهجرة لغةً : مأخوذة من الهجر والترك . ومنه سمي المهاجرون بذلك , لأنهم هجروا ديارهم ، وتركوها إلى غيرها .

وشرعاً : لها معنيان :

١. **عام** : ترك كل ما نهى الله عنه ، كما جاء عند البخاري من حديث عبدالله بن عمرو : والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه .

٢. **خاص** : الانتقال من بلد لا يستطيع إقامة الدين فيه إلى بلد يستطيع فيه ذلك .

وقد ذكر ابن حجر في الفتح أن الهجرة وقعت في الإسلام على وجهين :

الأول : الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن , كما في هجرتي الحبشة , وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة .

الثاني : الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان , وذلك بعد أن استقر النبي ﷺ بالمدينة , وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين , وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال إلى المدينة إلى أن فتحت مكة فانقطع الاختصاص أ.هـ

والهجرة من حيث مكانها تنقسم إلى قسمين :

١. **هجرة عامة** : وهي الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام . وهذه باقية إلى قيام الساعة .

٢. **هجرة خاصة** : الهجرة من مكة إلى المدينة . وهذه انتهت , كما قال ﷺ (لا هجرة بعد الفتح) متفق عليه .

والهجرة من حيث الحكم تنقسم إلى قسمين :

١. **واجبة** : إذا لم يتمكن المسلم – المقيم بدار الكفر – من إظهار دينه ، وكان قادراً على الهجرة ، وعليه تحمل الآية المذكورة .

قال ابن هبيرة : واتفقوا فيما أعلم على وجوب الهجرة عن ديار الكفر لمن قدر على ذلك .

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره عند هذه الآية : نزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة , وليس متمكناً من إقامة الدين , فهو ظالم لنفسه , مرتكب حراماً بالإجماع , وبنص هذه الآية .

وقال شيخنا ابن عثيمين : فهي واجبة على كل مؤمن لا يستطيع إظهار دينه في بلد الكفر , فلا يتم إسلامه إذا كان لا يستطيع إظهاره إلا بالهجرة , وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

٢. **مستحبة** : إذا كان يستطيع أن يظهر دينه ، وكان قادراً على الهجرة ، وهذا قول الجمهور , واختاره ابن قدامة , وابن تيمية .

إلا إن كان في بقائه مصلحة , وأمن على نفسه ودينه .

مسألة : ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالقدرة على إظهار الدين , هو : القدرة على إعلان الشعائر , مع إظهار العداوة والتبرؤ من دين المشركين , ولا يكفي القدرة على إقامة الشعائر , كالأذان , والحجاب , ونحو ذلك .

والذي يظهر أن ذلك راجع للمصلحة التي يقدرها العلماء , بشرط عدم مجاملة الكفار بإظهار أن ما هم عليه حق أو جائز .

ويمكن أن يُستدل بأن الصحابة الذين كانوا بداية الإسلام في مكة لم يكونوا يعلنون العداء لدين المشركين إلا عند الحاجة , بل بعضهم يسلم , ويخالط المشركين , ولا يعلم الكثير بإسلامه , وكذا الصحابة الذين كانوا في الحبشة , لم يكونوا يعلنون العداء لدين النصارى , والله أعلم .

مسألة : اختلف أهل العلم في ضابط بلد الكفر اختلافاً كثيراً , وأقرب الأقوال والله أعلم أنها التي يكون الكفر فيها غالباً .

قال شيخنا : هو الذي تقام فيه شعائر الكفر ولا تقام فيه شعائر الإسلام ، كالأذان , والصلاة جماعة , والأعياد , والجمعة على وجه عام وشامل , وإنما قلنا على وجه عام وشامل ليخرج ما تقام فيه هذه الشعائر على وجه محصور ، كبلاد الكفار التي فيها أقليات مسلمة , فإنها لا تكون بلاد إسلام بما تقيمه الأقليات المسلمة فيها من شعائر الإسلام أ.هـ

وانظر تكرماً حكم الإقامة في بلاد الكفار , وحكم السفر إليها في مجموع الفتاوى لشيخنا ابن عثيمين ج٦ص١٣٣.

فائدة : قال ابن تيمية : رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيماناً من غيرهم ممن جرد الإسلام .

فلما استقر في المدينة أُمر ببقية شرائع الإسلام , مثل : الزكاة , والصوم , والحج , والأذان , والجهاد , والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغير ذلك من شرائع الإسلام .

أخذ على هذا عشر سنين ، وبعدها توفي(١) صلوات الله وسلامه عليه , ودينه باقٍ .

خلاصة هذا المقطع : بيان شرائع الإسلام التي شرعت في المدينة خلال العشر سنوات التي قضاها ﷺ في المدينة حتى توفاه الله .

ذكر المصنف أن عامة شرائع الإسلام لم تشرع إلا في المدينة ، وهذا من رحمة الله أن أخر فرض هذه الواجبات إلى أن هاجر ﷺ والمؤمنون , واستقر الأمر ، وأمن الناس .

وأكثر هذه الشرائع فرضت في السنة الثانية من الهجرة ,كالأذان , والصوم , والزكاة .

وأما الحج ففي السنة التاسعة على الصحيح .

قال شيخنا : والظاهر أن الجماعة كذلك لم تفرض إلا في المدينة , لأن الذي فيه الدعوة للجماعة – يعني الأذان – فرض السنة الثانية .

وينبه إلى أن الزكاة جاء ذكرها في بعض الآيات المكية , كما قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ وفي سورة المعارج وهي مكية ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ .

وهذا نوع إشارة إلى تشريعها , ولكن طلبها , وذكر الأموال الزكوية , وتقدير أنصابها , وبيان أهلها كان بالمدينة في السنة الثانية .

وذلك أن زكاة المال فرضت بعد زكاة الفطر ، كما قال قيس بن سعد : أمرنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة , فلما نزلت الزكاة لم يأمرنا ولم ينهنا , ونحن نفعله . رواه النسائي , وصححه الألباني .

وقد بوب النسائي عليه بقوله : باب : فرض صدقة الفطر قبل نزول الزكاة .

وزكاة الفطر فرضت في المدينة , لأن صوم رمضان ما فرض إلا في السنة الثانية من الهجرة بالإجماع .

وأما قوله (والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فهذا فيه إشكال , وذلك أن النبي ﷺ كان مأموراً وجوباً بالدعوة إلى التوحيد , والنهي عن الشرك , ومأموراً بالدعوة إلى الصلاة قبل الهجرة , وهو بمكة .

لكن ربما يكون المراد به عموم المسلمين , لأنه في مكة قُبل منهم كتمان الدين , والله تعالى أعلم .

قوله [ودينه باقٍ] وذلك أن هذا الدين , هو الدين الذي ارتضاه الله للناس إلى قيام الساعة , فلا يحتاج الناس في مصالحهم , ومعاشهم , ومعادهم إلا الامتثال لهذا الدين الخاتم , قال تعالى ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ومن ابتغى الفلاح والرفعة بغيره أكبه الله على وجهه خاسئاً خاسراً ولو بعد حين .

---

(١) توفي : لها ضبطان صحيحان ، بضم التاء , وفتحها ، والأشهر عند اللغويين الضم ، ويكون المعنى : استوفى الله أجله .

وبالفتح يكون المعنى : استوفى عمره في هذه الدنيا .

وذكر شيخنا في الممتع في كتاب العِدد أن اللفظان جائزان , لكن بالفتح لغة ضعيفة جداً فقال : الفرق بين المتَوفِّي والمتَوَفَّى : أن الأول اسم فاعل ، والثاني اسم مفعول ، والصواب اسم المفعول , لأن الله تعالى يقول (الله يَتوفى الأنفس حين موتها) فالإنسان مُتَوَفَّى ، ويجوز لكنه لغة ضعيفة جداً أن نجعلها اسم فاعل (مُتَوَفٍّ) أي: متوفٍّ أجله ورزقه ، أي قد استوفاه واستكمله ، لكن الأول هو الأصح .

وهذا دينه لا خير إلا دل الأمة عليه ، ولا شر إلا حذرها منه .

والخير الذي دلها عليه : التوحيد ، وجميع ما يحبه الله ويرضاه .

والشر الذي حذرها منه : الشرك , وجميع ما يكرهه الله ويأباه .

خلاصة هذا المقطع : بيان عظمة الدين الذي جاء به النبي ﷺ وكماله .

بعد أن ذكر المصنف أن دين النبي ﷺ باقٍ إلى قيام الساعة , بين السبب الذي من أجله ارتضى الله هذا الدين للناس إلى قيام الساعة , وذلك أن الله أكمل هذا الدين وأتمه , فما من خير إلا ودل عليه , وما من شر إلا وحذر منه , فلا يحتاج الناس بعد ذلك إلى غيره , لا في مصالح الدنيا , ولا في مصالح الدين , قال تعالى ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ صدقاً في الأخبار , وعدلاً في الأحكام .

وأعظم ما دل عليه النبي ﷺ هو التوحيد , وأعظم ما حذر منه الشرك .

قال ابن القيم : قد تمم الله سبحانه الدين بنبيه ﷺ وأكمله به , ولم يحوجه , ولا أمته بعده إلى عقل , ولا نقل سواه , ولا رأي , ولا منام , ولا كشوف , قال تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً ﴾ وأنكر على من لم يكتف بالوحي عن غيره فقال ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

وقال أيضاً في إعلام الموقعين : وأن رسول الله ﷺ كما هو عام الرسالة إلى كل مكلف , فرسالته عامة في كل شيء من الدين أصوله وفروعه , ودقيقه وجليله ، فكما لا يخرج أحد عن رسالته فكذلك لا يخرج حكم تحتاج إليه الأمة عنها وعن بيانه له .

وقال السعدي : فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم , وأحكامهم إلى غير علوم الكتاب والسنة , من علم الكلام وغيره , فهو جاهل , مبطل في دعواه , فقد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قال ودعا إليه , وهذا من الظلم , والتجهيل لله ورسوله أ.هـ

وقال ابن القيم أيضاً في إعلام الموقعين : وقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علماً ، وعلمهم كل شيء حتى آداب التخلي , وآداب الجماع , والنوم , والقيام , والقعود ، والأكل , والشرب ، والركوب , والنزول ، والسفر , والإقامة ، والصمت , والكلام ، والعزلة , والخلطة ، والغنى , والفقر ، والصحة , والمرض ، وجميع أحكام الحياة , والموت ، ووصف لهم العرش , والكرسي , والملائكة , والجن , والنار , والجنة , ويوم القيامة , وما فيه حتى كأنه رأي عين ، وعرفهم معبودهم وإلههم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله , ونعوت جلاله ، وعرفهم الأنبياء وأممهم , وما جرى لهم ، وما جرى عليهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم ، وعرفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرفه نبي لأمته قبله ، وعرفهم ﷺ من أحوال الموت , وما يكون بعده في البرزخ , وما يحصل فيه من النعيم , والعذاب للروح والبدن ما لم يعرف به نبي غيره ، وكذلك عرفهم ﷺ من أدلة التوحيد , والنبوة , والمعاد , والرد على جميع فرق أهل الكفر , والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة من بعده ، اللهم إلا إلى من يبلغه إياه , ويبينه ويوضح منه ما خفي عليه ، وكذلك عرفهم ﷺ من مكايد الحروب , ولقاء العدو , وطرق النصر , والظفر ما لو علموه , وعقلوه , ورعوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبداً ، وكذلك عرفهم ﷺ من مكايد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها وما يتحرزون به من كيده , ومكره , وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه ، وكذلك عرفهم ﷺ من أحوال نفوسهم , وأوصافها

, ودسائسها , وكمائنها ما لا حاجة لهم معه إلى سواه ، وكذلك عرفهم ﷺ من أمور معايشهم ما لو علموه , وعملوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة .

وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته ، ولم يحوجهم الله إلى أحد سواه ، فكيف يظن أن شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعة أكمل منها , ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها ، أو إلى قياس , أو حقيقة , أو معقول خارج عنها ؟! ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده ، وسبب هذا كله خفاء ما جاء به على من ظن ذلك , وقلة نصيبه من الفهم الذي وفق الله له أصحاب نبيه الذين اكتفوا بما جاء به ، واستغنوا به عما ما سواه ، وفتحوا به القلوب , والبلاد ، وقالوا : هذا عهد نبينا إلينا ، وهو عهدنا إليكم ، وقد كان عمر رضي الله عنه يمنع من الحديث عن رسول الله ﷺ خشية أن يشتغل الناس به عن القرآن ، فكيف لو رأى اشتغال الناس بآرائهم , وزبد أفكارهم , وزبالة أذهانهم عن القرآن والحديث ؟! فالله المستعان .

وقد قال الله تعالى (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) وقال تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) وقال تعالى (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) وكيف يشفي ما في الصدور كتاب لا يفي هو وما تبينه السنة بعشر معشار الشريعة ؟ أم كيف يشفي ما في الصدور كتاب لا يستفاد منه اليقين في مسألة واحدة من مسائل معرفة الله , وأسمائه وصفاته , وأفعاله ؟ أو عامتها ظواهر لفظية دلالتها موقوفة على انتفاء عشرة أمور لا يعلم انتفاؤها ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، ويا لله العجب ، كيف كان الصحابة والتابعون قبل وضع هذه القوانين التي أتى الله بنيانها من القواعد ، وقبل استخراج هذه الآراء , والمقاييس , والأوضاع ؟ أهل كانوا مهتدين , مكتفين بالنصوص , أم كانوا على خلاف ذلك ؟ حتى جاء المتأخرون فكانوا أعلم منهم , وأهدى , وأضبط للشريعة منهم , وأعلم بالله , وأسمائه , وصفاته , وما يجب له , ويمتنع عليه منهم ؟ فوالله لأن يلقى الله عبده بكل ذنب ما خلا الإشراك خير من أن يلقاه بهذا الظن الفاسد , والاعتقاد الباطل أ.هـ

بعثه الله إلى الناس كافة ، وافترض طاعته على جميع الثقلين[1] : الجن والإنس .

والدليل قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ .

وأكمل الله به الدين , والدليل قوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ .

والدليل على موته ﷺ قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : بيان عموم رسالة النبي ﷺ ووجوب طاعته على جميع الإنس والجن , وبيان كمال الدين قبل موته .

والدليل على أن رسالة النبي ﷺ عامة للإنس والجن , والعرب والعجم , والأبيض والأسود , وأنها ناسخة لجميع الديانات , قوله تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) وقال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وقال تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ، **وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس كافة** ، وأعطيت الشفاعة . متفق عليه , وهذا لفظ البخاري .

وعند مسلم : كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود .

ثم ذكر المصنف الدليل على إكمال الدين به , والدليل على موته .

وبهذا يكون المصنف قد انتهى من الكلام عن هذا الأصل الثالث , وهو معرفة النبي ﷺ .

وخلاصة الأصل الثالث : بيان شيء من سيرة النبي ﷺ إجمالاً , كمعرفة اسمه , ونسبه , وعمره , ومكان مولده , ومكان وفاته , وأصل دعوته , وأصول الشرائع التي فُرضت عليه وعلى أمته , وبيان كمال الشريعة التي جاء بها , وبيان أن شريعته هي الشريعة الخاتمة التي ارتضاها الله لعباده إلى قيام الساعة , لا يقبل الله من أحد سواها .

---

(١) قال شيخنا ابن عثيمين : سموا بالثقلين لكثرة عددهم .

والناس إذا ماتوا يبعثون ،والدليل قوله تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾.

وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُم فِيهَا وَيُخرِجُكُم إخرَاجاً ﴾ .

وبعد البعث محاسبون , ومجزيون بأعمالهم ، والدليل قوله تعالى ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ .

ومن كذب بالبعث كفر , والدليل قوله تعالى ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

هذا هو القسم الثالث من هذه الرسالة المفيدة ، وهو عبارة عن مسائل متفرقة(١) .

وخلاصة هذا المقطع : إثبات البعث ، والحساب ، والمجازاة ، وذكر الأدلة على ذلك ، وبيان حكم التكذيب بذلك .

بعد أن أنهى المصنف الكلام عن الأصل الثالث بذكر الدليل على موته ﷺ ذكرَ وجوب الإيمان بالموت , والبعث , والحساب ، وذكر أن من كذب بذلك فهو كافر ، وذكر الدليل عليه(٢) .

والكلام والتفصيل في هذه المراحل وغيرها من أمور الآخرة يأتي إن شاء الله عند شرح (العقيدة الواسطية) .

---

(١) وهذا بناء على النسخ المنتشرة اليوم , والتي تُلحق الرسائل الثلاث برسالة (الأصول الثلاثة) وسبق الكلام عن ذلك في مقدمة الشرح .

(٢) هناك ثلاث آيات أمر الله نبيه ﷺ بأن يقسم فيها على وقوع المعاد ، وهي قوله تعالى (قل بلى وربي لتبعثن) وقوله تعالى (ويستنبؤنك أحق هو قل إي وربي إنه لحق) وقوله تعالى (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم) .

وأرسل الله جميع الرسل مبشرين , ومنذرين ، والدليل قوله تعالى ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ .

وأولهم نوح عليه السلام ، وآخرهم محمد ﷺ وهو خاتم النبيين .

والدليل على أن أولهم نوح ، قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ ﴾ .

وكل أمة بعث الله إليها رسولاً من نوح إلى محمد , يأمرهم بعبادة الله وحده , وينهاهم عن عبادة الطاغوت .

والدليل قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : أن الله قد أقام الحجة على عباده بإرسال الرسل , وإنزال الكتب , وبيان أن أصل رسالة المرسلين : الدعوة إلى عبادة الله وحده , والكفر بالطاغوت , كما قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾.

وقوله [وأولهم نوح] أول الرسل نوح ، كما في الآية التي ذكرها المصنف ، وكما في حديث الشفاعة : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض . متفق عليه .

وقوله [وآخرهم محمد ﷺ وهو خاتم النبيين] كما تواترت الآيات والأحاديث بذلك , قال تعالى ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ وأما عيسى إذا نزل فإنه يحكم بشريعة محمد ﷺ .

فائدة : **أفضل الأنبياء** : الرسل ، **وأفضل الرسل** : أولوا العزم(١) , **وأفضلهم** محمد ﷺ بالإجماع , ثم إبراهيم , ثم وقع الخلاف في الثلاثة الباقين .

فقال ابن حجر : أفضلهم بعد إبراهيم : موسى ثم عيسى ثم نوح .

وقال شيخنا في شرح لمعة الاعتقاد : ثم نوح وعيسى لا يجزم بالمفاضلة بينهما , لأن لكل منهما مزية .

---

(١) وهم : نوح , وإبراهيم , وموسى , وعيسى , ومحمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين .

وقد جاء ذكرهم جميعاً في موضعين من القرآن , الأول في سورة الأحزاب (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) والثاني في سورة الشورى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

مسألة : ما الفرق بين النبي والرسول ؟

ذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا فرق بينهما ، والصحيح أن بينهما فرقاً ، بدليل قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ... ﴾ ولحديث أبي ذر رضي الله عنه الوارد في عدد الرسل والأنبياء , قال أبو ذر : قلت يا رسول الله : كم وفاء عدة الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، والرسل من ذلك : ثلاثمائة وخمسة عشر ، جماً غفيراً . صححه الألباني في مشكاة المصابيح[١].

وذكر العلماء فروقاً بينهما ، من أشهرها :

أن النبي من أوحي إليه بوحي ولم يؤمر بتبليغه , والرسول من أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه .

كما كان نبينا ﷺ نبياً بنزول سورة العلق , ورسولاً بنزول سورة المدثر .

وقيل : النبي من جاء مجدداً لشريعة من قبله ، والرسول من جاء بشرع جديد .

وقيل : النبي من أرسل إلى قوم مؤمنين , يذكرهم بدينهم , وربما جاءهم بشرع جديد , والرسول من أرسل إلى قوم كفار خالفوه كلهم , أو بعضهم , وهذا اختيار ابن تيمية , كما في كتاب (النبوات)[٢].

---

(١) قال ابن حجر في الفتح : ووقع في ذكر الأنبياء حديث أبي ذر مرفوعاً : أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً , والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر , صححه ابن حبان أ.هـ

(٢) قال ابن تيمية في كتاب (النبوات) : فالنبي هو الذي ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأ الله به , فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول , وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله , ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول , قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ألقى الشيطان في أمنيته) وقوله (من رسول ولا نبي) فذكر إرسالاً يعم النوعين , وقد خص أحدهما بأنه رسول , فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله , كنوح . وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بُعث إلى أهل الأرض , وقد كان قبله أنبياء , كشيث , وإدريس , وقبلهما آدم كان نبيا مكلماً , قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام . فأولئك الأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم , لكونهم مؤمنين بهم , كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول . وكذلك أنبياء بني إسرائيل يأمرون بشريعة التوراة , وقد يُوحى إلى أحدهم وحي خاص في قصة معينة , ولكن كانوا في شرع التوراة كالعالم الذي يُفهمه الله في قضية معنى يطابق القرآن , كما فهم الله سليمان حكم القضية التي حكم فيها هو وداود .

فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره , وبنهيه , وخبره , وهم ينبئون المؤمنين بما أنبأهم الله به من الخبر , والأمر , والنهي , فإن أرسلوا إلى كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له , ولا بد أن يكذب الرسلَ قوم , قال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُون) وقال (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ) فإن الرسل ترسل إلى مخالفين فيكذبهم بعضهم . وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ , حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) وقال (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

فقوله (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) دليل على أن النبي مرسل , ولا يسمى رسولاً عند الاطلاق , لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه , بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعالم , ولهذا قال النبي ﷺ : العلماء ورثة الأنبياء . وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة , فإن يوسف كان رسولاً , وكان على ملة إبراهيم . وداود وسليمان كانا رسولين , وكانا على شريعة التوراة , قال تعالى عن مؤمن آل فرعون (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا) وقال تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا , وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) أ.هـ

وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت , والإيمان بالله .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : الطاغوت : ما تجاوز به العبد حده من معبود , أو متبوع , أو مطاع .

والطواغيت كثيرون , ورؤوسهم خمسة : إبليس لعنه الله ، ومن عُبد وهو راض ، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه ، ومن ادعى شيئاً من علم الغيب ، ومن حكم بغير ما أنزل الله .

والدليل قوله تعالى ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وهذا معنى (لا اله إلا الله) .

وفي الحديث [رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله].

والله أعلم ، وصلى الله على محمد , وعلى آله , وصحبه , وسلم .

خلاصة هذا المقطع : تعريف الطاغوت ، وذكر رؤوسه ، وحكم الكفر به , ثم ختم الرسالة .

لما ذكر المصنف أن موضوع رسالة الرسل هو الأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة الطاغوت , تكلم عن الطاغوت ، فذكر تعريفه ، ورؤوسه ، وحكم الكفر به .

قوله [وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت , والإيمان بالله] .

هذا هو التوحيد الذي قال الله فيه (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : وصفة الكفر بالطاغوت : أن تعتقد بطلان عبادة غير الله , وتتركها , وتبغضها , وتكفر أهلها , وتعاديهم .

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله : ويدخل في الكفر بالطاغوت : بغضه , وكراهته , وعدم الرضى بعبادته بوجه من الوجوه(١).

والطاغوت لغة : صيغة مبالغة مشتقة من الطغيان ، والطغيان تجاوز الحد . ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ يعني : زاد عن الحد المعتاد .

وشرعاً : اختلفت عبارات العلماء في تعريفه , فقيل : الشيطان , وقيل : الساحر , وقيل الكاهن , وقيل : كل ما عبد من دون الله , وقيل غير ذلك(٢) .

---

(١) وفي الدرر السنية : ومن المعلوم أن من لم ينكر الشرك لم يعرف التوحيد , ولم يأت به . ص٢٠٧ ج٣

(٢) قال النووي في شرح مسلم : قوله (الطواغيت) هو جمع طاغوت , قال الليث , وأبو عبيدة , والكسائي , وجماهير أهل اللغة : الطاغوت كل ما عُبد من دون الله تعالى , وقال ابن عباس , ومقاتل , والكلبي , وغيرهم : الطاغوت الشيطان , وقيل : هو الأصنام , قال الواحدي : الطاغوت يكون واحداً وجمعاً , ويؤنث ويذكر , قال الله تعالى (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) فهذا في الواحد , وقال تعالى في الجمع (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم) وقال في المؤنث (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها) .

ويلاحظ في هذه التعاريف أنها من باب تفسير الشيء ببعض أفراده[١] ، وأما التفسير الجامع للطاغوت فهو ما قاله ابن القيم في كتابه (إعلام الموقعين) : **والطاغوت : كل ما تجاوز به العبد حده من معبود , أو متبوع , أو مطاع** , فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله .

فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها , وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم عدلوا عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت ، وعن التحاكم إلى الله , وإلى الرسول , إلى التحاكم إلى الطاغوت ، وعن طاعته ومتابعة رسوله , إلى طاعة الطاغوت ومتابعته أ.هـ

وقال ابن جرير الطبري بعد أن ذكر عدة أقوال عن السلف في معنى الطاغوت : والصواب من القول عندي في الطاغوت أنه كل ذي طغيان على الله ، فعُبد من دونه ، إما بقهر منه لمن عبده ، وإما بطاعة ممن عبده له ، وإنساناً كان ذلك المعبود ، أو شيطاناً ، أو وثناً ، أو صنماً ، أو كائناً ما كان من شيء .

وقال ابن جرير أيضاً : والصواب من القول في تأويل (يؤمنون بالجبت والطاغوت) أن يقال : يصدِّقون بمعبودَين من دون الله ، يعبدونهما من دون الله ، ويتخذونهما إلهين .

وذلك أن الجبت , والطاغوت اسمان لكل معظَّم بعبادةٍ من دون الله ، أو طاعة ، أو خضوع له ، كائنًا ما كان ذلك المعظَّم ، من حجر , أو إنسان , أو شيطان , وإذ كان ذلك كذلك ، وكانت الأصنام التي كانت الجاهلية تعبدها ، كانت معظمة بالعبادة من دون الله , فقد كانت جُبوتاً , وطواغيت , وكذلك الشياطين التي كانت الكفار تطيعها في معصية الله ، وكذلك الساحر , والكاهن اللذان كان مقبولاً منهما ما قالا في أهل الشرك بالله , وكذلك حيي بن أخطب , وكعب بن الأشرف ، لأنهما كانا مطاعين في أهل ملتهما من اليهود في معصية الله , والكفر به وبرسوله ، فكانا جبتين وطاغوتين أ.هـ

وأما الطاغوت باعتبار أفراده فكثير , وذكر المصنف هنا أن رؤوسه خمسة , وهم :

أ. إبليس : وهو أكبر الطواغيت على الإطلاق ، وذلك أنه جمع معانٍ كثيرة من معاني الطاغوت ، فهو يدعو إلى عبادة نفسه , وإلى عبادة غيره ، ويدعو إلى تغيير أحكام الله ، ويعين من يدعي علم الغيب , فهو رأسهم لأنه عُبد , ولأنه متبوع ، ولأنه مطاع , وهو راض بكل ذلك .

وقد نص غير واحد من السلف على أن الطاغوت هو الشيطان , كما نقله الطبري وغيره عنهم , من أشهرهم عمر بن الخطاب , وقد ذكره البخاري أيضاً عن عمر .

ب. من عُبد وهو راضٍ : بأي نوع من أنواع العبادة , كمن ذبح له , أو أستغيث به , ونحو ذلك , حياً كان أو ميتاً .

وقوله (وهو راض) جملة حالية , فلا يدخل عيسى , والملائكة , وكل من لم يرض بعبادته .

ودليل كونه طاغوتاً : ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : يجمع الله الناس ، فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت .

وما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة .

وذو الخلصة : **طاغية** دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية . رواه البخاري

---

(١) باستثناء تعريف من قال : الطاغوت كل ما عُبد من دون الله تعالى .

وما جاء عن عبد الرحمن بن سمرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : لا تحلفوا بالطواغي ، ولا بآبائكم . رواه مسلم

ج. من دعا الناس إلى عبادة نفسه : ولو لم يُعبد .

وهذا أغلظ من الذي قبله ، لأن الذي قبله رضي بالعبادة ولم يدعُ الناس لعبادته ، وأما هذا فهو الذي دعاهم ، فيكون – ولابد – راض بالعبادة .

ومثاله رؤوس الرافضة والصوفية الذين يعظمهم أتباعهم فوق الحد الشرعي ويتخذونهم مطاعين ومتبوعين دون النبي ﷺ .

د. من ادعى شيئاً من علم الغيب :

كالساحر , والكاهن , والمنجم , ونحوهم ممن يدعي معرفة الغيب .

ودليل كون هؤلاء من الطواغيت : ما جاء عن جابر قال : كانت الطواغيت التي يتحاكمون إليها ، في جهينة واحد ، وفي أسلم واحد ، وفي كل حي واحد ، كهان ينزل عليهم الشيطان . رواه البخاري

هـ . من حكم بغير ما أنزل الله :

وذلك أن الحكم في الخلق من خصائص الله , كما قال تعالى (إن الحكم إلا لله) .

ودليل كون هذا النوع طاغوتاً , قوله تعالى (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) فكل ما سوى حكم الله فهو طاغوت .

والحكم بغير ما أنزل الله فيه تفصيل , فتارة يكون كفراً أكبر , وتارة يكون كفراً أصغر :

أ. كفر أكبر : إذا حكم بغير ما أنزل الله معتقداً أنه أفضل من حكم الله ، أو مساوياً له ، أو أنه يجوز الحكم به – حتى لو اعتقد أن حكم الله أفضل – , أو ترك الحكم بما أنزل الله استخفافاً به ، أو احتقاراً له , أو اعتقاداً أن غيره أصلح منه ، وأنفع للخلق .

ب. كفر أصغر : إذا حكم بغير ما أنزل الله وهو يعلم أن فعله باطل ولا يجوز ، وأنه يجب الحكم بحكم الله , ولكن فعل ذلك محاباة للمحكوم ، أو خوفاً منه , أو طلباً لرشوة , ونحو ذلك .

ويأتي الكلام عن هذه المسألة عند شرح رسالة (نواقض الإسلام) إن شاء الله تعالى .

فائدة : ذكر المصنف هنا أن رؤوس الطواغيت خمسة ثم عدهم , وقد عدهم في بعض المواضع بغير هذه الصور , وهذا يعني أن العدد غير محصور , ولكن ما ذكره هنا أقرب , والله أعلم(١) .

وقوله في ختام الرسالة [وفي الحديث : رأس الأمر الإسلام , وعموده الصلاة , وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله] .

ختم المصنف رسالته بحديث معاذ الذي رواه أحمد , والترمذي , وابن ماجه , وصححه الألباني .

وقوله ﷺ (رأس الأمر) المراد بالأمر هنا (الدين) والمراد بالإسلام هنا (الشهادتان) كما جاء عند أحمد عن معاذ قال : قال لي نبي الله ﷺ : إن شئت حدثتك برأس هذا الأمر , وقوام هذا الأمر , وذروة السنام ، قلت : بلى ، فقال رسول الله ﷺ : إن رأس هذا الأمر أن تشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ...

---

(١) قال الشيخ في موضع : والمتبين لنا منهم خمسة : أولهم الشيطان , وحاكم الجور , وآكل الرشوة , ومن عُبد فرضي , والعامل بغير علم . الدرر السنية ج١ص١٣٧ . وفي ص١٦٢–١٦٣ذكرهم كالتالي : الشيطان , والحاكم الجائر , والذي يحكم بغير ما أنزل الله , والذي يدعي علم الغيب , والذي يُعبد من دون الله وهو راضٍ بالعبادة .

قال ابن رجب : ويعني بالأمر : الدين الذي بعث به وهو الإسلام ، وقد جاء تفسيره في الرواية الأخرى بالشهادتين ، فمن لم يقر بهما ظاهراً وباطناً فليس من الإسلام في شيء .

وقوله ﷺ (وعموده الصلاة) عمود الفسطاط – الذي هو الخيمة من الشعر– ما يقوم عليه ، فإن زال العمود سقط الفسطاط ، وكذلك الصلاة عمود الدين ، فلا دين لمن لا صلاة له ، وهذا مما يؤيد كفر تارك الصلاة .

وقوله ﷺ (وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله) الذروة هي أعلى الشيء .

والمعنى أن الجهاد من أعلى مراتب الدين ، وإنما كان كذلك لأنه يحصل به العلو والرفعة للدين ، وبتركه تكون المهانة والذلة لأهل الإسلام .

وفي الصحيحين عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله : أي العمل أفضل ؟ قال : الإيمان بالله , والجهاد في سبيله .

هذا هو آخر هذه الرسالة المفيدة ، التي ختمها المصنف – رحمه الله – بالصلاة , والسلام على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم , ورد العلم إلى الله سبحانه وتعالى .

نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل , والفقه في الدين , وأن يثبتنا على التوحيد والسنة , آمين , آمين , آمين .